

عصمة الأنبياء

وهو الكتاب المسمى

(تحفة الأصفياء في بيان معنى القول بعصمة الأنبياء)

تأليف

فتح الله بن أبي بكر البناني

صححه

محمود مرسى عبد الحميد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ صرب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

فتح الله ابي بكر البناني
عصمة الانبياء ، تأليف : فتح الله ابي بكر البناني ،
وتحقيق محمود مرسي عبدالحميد . - ط ١ . - القاهرة : المكتبة
الأزهرية للتراث ، الجزيرة للنشر والتوزيع ، ٢٠١١
ص ؛ سم
تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٣١٥-٢٨١-١
١ - التصوف والاخلاق
أ - الشاغول ، محمد عبدالرحمن (محقق)
ب - العنوان

المكتبة الأزهرية للتراث
للتنشر و التوزيع

العنوان .
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة
هاتف : ٢٥١٢٠٨٤٧
فاكس : ٢٥١٢٨٤٥٩
ص ب : ٣٤ الأزهر
الرمز البريدي : ١١٦٧٥

الطبعة الأولى
١٤٣٢-٢٠١٢

رقم الإيداع : ٢٠١٢ / ٥٥٥٥
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٣١٥-٢٨١-١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي مَنْ توكل عليه كفاه ، ومن اعتصم به حفظه ومن كل مكروه حماء ، والصلاة والسلام على الركن الأعظم والكنز المطلسم ، أفضل من تأخر أو تقدم سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، ذي المقام الأعلى والقدر الرفيع عند الله القائل : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » وعلى آله وأصحابه الذين من توسل بهم إلى الله أذهب الله عنه الهم والجوى ، أما بعد . .

فيقول أفقر العبيد وأحوجهم إلى رحمة الله (فتح الله) بن أبي بكر بن محمد بناني تولاه الله : لما منَّ الله (تبارك وتعالى) علينا - فضلاً منه وكرماً - بسرد الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي أبي الفضل عياض رحمته الله في زاويتنا مع بعض الإخوان ، أصلح الله لي ولهم الشأن ، وقوانا وإياهم في ذات الله إنه الكريم المتان ، ووصلنا إلى الفصل الثاني في عصمة الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) من القسم الثالث منها فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه ﷺ (أمعنت) النظر في كلام العلماء رحمهم الله في معنى العصمة فوجدته مجرّاً لا ساحل له ، وكل واحد عبّر بحسب فهمه وطوقه وما تيسر له ، إلا أن ما ذكروه رحمهم الله مفترق في مواضع شتى ، ولا يخفاك أن الافتراق لا يحصل معه كمال الفائدة عند أهل الأذواق ، فاستخرت الله (تبارك وتعالى) في جمع ما وقفت عليه عن العلماء الأعيان في هذه الرسالة من غير زيادة ولا نقصان إلا ما لا بد منه عند إرادة البيان ، حملني على ما أردت


خوف الضياع مع أنني أعترف بأنني لست من فرسان هذا الميدان ؛ لقلة العلم وقصر الباع والتشبه بالسادات الكرام رجاء أن يدخلني الله في زميرهم بمحض فضله وكرمه سبحانه ؛ لقول مولانا رسول الله ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » قال العلقمي رحمه الله : أي من تشبه بال صالحين يكرم كما يكرمون ، ومن تشبه بالفساق لم يكرم ومن وضع عليه علامة الشرفاء أكرم وإن لم يتحقق شرفه انتهى .

ولقول سيدي عمر السهروردي رحمه الله وأجاد :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رباح

وقول مولانا رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وقد نص العلماء رحمه الله على الانتفاع بالتأليف يدخل في عموم قوله ﷺ : « أو علم ينتفع به » بل قالوا : إن التأليف أولى في نفع العباد لأنه مظنة عدم انقطاع الانتفاع به ولا يعترض على ما عزم عليه العبد الضعيف بقول الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد ابن عرفة إنما تدخل التأليف في ذلك إذا اشتملت على فائدة زائدة وإلا فذاك تحسير للكاغط ويعنى بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليه ، وأما إذا لم يشتمل التأليف الأعلى نقل ما في الكتب المقدمة فهو الذي قال فيه : إنه تحسير للكاغط لأنه يجاب عنه بما ذكره أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني - نزيل فاس ، دفع الله عنهما كل بأس - في أزاهر الرياض ونصه رحمه الله : رأيت بخط بعض الأكابر ما نصه : المقصود من التأليف سبعة : شيء لم يسبق إليه فيؤلف ،

أو شيء ألف ناقصاً فيكمل ، أو خطأ فيصحح ، أو مشكل فيشرح ، أو مطول فيختصر ، أو مفترق فيجمع ، أو منشور فيرتب ، إلى آخر ما ذكره  . انظر أوّل حاشية الشيخ محمد الرهوني على الزرقاني تستقد بسط المعنى بأكثر من هذا المبنى .

ومن جمع المفترق ما عزمنا عليه بحول الله وقوته حرر الله قصدنا بمنه وكرمه وأكرمنا بالإخلاص لأن الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وسميتها (تحفة الأصفياء في بيان معنى القول بعصمة الأنبياء) وقد آن لنا الشروع في مبدائها ، وجعلت بسم الله مجراها ومرساها .

فنقول : ومن الله نرجو القبول قد تقرر أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد عصمة الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) قبل النبوة وبعدها ، كما قال صاحب المرشد المعين  : يجب للرسل الكرام الصدق أمانة إلخ ، وكما قال اللقاني في الجوهرة وواجب في حقهم الأمانة إلخ ، ومرادها بالأمانة الواجبة في حق الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) العصمة وقد عبر بها اللقاني نفسه في الجوهرة أيضاً بعد في قوله : بالمعجزات أيدوا تكرماً ، وعصمة الباري لكل حتماً ، فهو من التعبير باللازم وإرادة الملزوم ، وهي - أعني العصمة - عبارة المتكلمين ، ولعل السرّ في العدول عن عبارة المتكلمين للائتما إليها الإشارة إلى التكليف بنفي أضدادها ، كما قاله الشيخ الطالب في حاشيته على صغير ميارة والشيخ الدسوقي في حاشيته على شرح أم البراهين للسنوسي ، وزاد الدسوقي إذ ورد « وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته » و« لئن أشركت ليحبطن عملك » تأمل ١ هـ .

ثم إنه ^(١) ينبغي لنا أن تقدم معنى العصمة لغةً واصطلاحاً ثم بعد نحقق معناها بما ذكره العلماء ^(٢) في حق الأنبياء والرسل وغيرهم على ما يأتي إن شاء الله ، فاعلم يا أخي أن العصمة في اللغة مطلق الحفظ لقول صاحب المصباح عصمه الله من المكروه يعصمه من باب ضرب حفظه ووقاه اغتصمت بالله امتنعت به ، والاسم العصمة ١. هـ

وقال في المختار : والعصمة أيضاً الحفظ واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية ١. هـ

وقال في القاموس : العصمة بالكسر المنع ١. هـ

وفي الاصطلاح حفظ الله (تبارك وتعالى) للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه ولا يجوز لنا سؤال العصمة بهذا المعنى ، كأن يقال اللهم إنا نسألك العصمة ، فإن أُريد المعنى اللغوي جاز لنا سؤالها . انتهى بيجوري .

وسياتى بيان ما فيه عن الإمام العدوي وقال الشيخ الطالب ^(٣) في حاشيته على صغير ميارة : العصمة صفة توجب امتناع عصيان موصوفها والمختص بالأنبياء والملائكة وجوبها ، فلا يمتنع حصولها لغيرهم على جهة الجواز ١. هـ

ومثله للدسوقي في حاشيته على شرح أم البراهين للسنوسي وقال الشهاب ^(٤) : قد تقرر أن العصمة عند المتكلمين أن لا يخلق في النبي ذنب .

وعند الحكماء : ملكة تمتع من الفجور وحاصلة من العلم بالقبائح والحاسن فإنه الزاجر عن المعاصي والداعي للطاعة ويتأكد في الأنبياء بالوحي الإلهي ، وقيل العصمة خاصة في النفس أو البدن بسببها يمتنع عن صدور الذنب ويأباه أنه

لو كان كذا ما استحق المدح والثواب ؛ لأنها ليست داخلة تحت الاختيار وهم مكفون بالاتفاق ، وفي التحرير لابن الهمام العصمة عدم القدرة على المعصية أو خلق مانع منها غير ملجئ ، وهو مناسب لقول الماتريدي : العصمة لا تنزل الحنة أي الابتلاء المقضي لبقاء الاختيار ، ومعناه - كما في الهداية - أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية بل هي لطف من الله تعالى يحمله على فعله ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء .

واعلم أن العلامة القرافي قال في التقييد شرح الأربعين / الرازية العصمة لغة الامتناع ، ومنه العصم لبعض الوحش لبعده عن مظان الأذى وامتناعه واستعصم الرجل امتنع ، ومنه عصمة الزوجية ، وحملة الشرع يطلقون العصمة على معنيين : أحدهما : عدم المعصية في الجملة ومنه قولهم في الدعاء نسألك من العصمة تماماً والثاني : عصمة الأنبياء والملائكة عن الكفر دون سائر البشر مع أن الله تعالى أثنى على الخلق بدوام الإيمان ، فلا بد من تفسير عصمة الأنبياء بغير عدم الكفر ، ومنع الله منه حتى يصح قولنا ليس أحد منا معصوماً وإن كنا غير كافرين مساوين للأنبياء في ذلك فتمييزهم إنما هو بإعلام الله تعالى لنا أنه صانهم في قضائه وقدره عن الكفر وقدر لهم السعادة الأبدية حتماً مقضياً ، فهذا الإعلام الرباني هو عصمة الأنبياء والملائكة ومجموع الأمة دون كل واحد منهم انتهى ١ هـ كلام الشهاب في شرح الشفا .

وقال الشيخ بناني في حاشيته على المحلي على جمع الجوامع عند قول المصنف في الكتاب الثاني في السنة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معصومون لا يصدر عنهم ذنب ولو صغيرة سهواً : في قوله لا يصدر عنهم ذنب إشعار بأن

العصمة عدم خلق الذنب في العبد كما هو الصحيح عند أهل السنة لا ملكة تلجئ إلى عدم الوقوع في الذنب كما هو المشهور عند المعتزلة ، إذ لو كان كذلك لم يحتاج إلى تكليف الأنبياء مع أنهم أشد الناس في التكليف ، ومن هذا قال أبو منصور الماتريدي : العصمة لا تزيل المحنة . وقال الشيخ زروق رحمته في شرحه لحزب البحر للشاذلي رحمته عند قوله نسألك العصمة في الحركات والسكنات . . . إلخ ، ما نصه : ثم العصمة تقع في نفس الأمر لمن خصه الله تعالى بها من نبي أو ولي أو غيرها عموماً إلا أنها واجبة للأنبياء فلا يصح تحلفها عنهم ، ولا دعواها من غيرهم لجواز النقائص عليهم وإنما يصح وصف غيرهم بالحفظ الذي هو انتقاء الذنب مع إمكان الوقوع فيه فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معصومون والأولياء رحمته محفوظون في حكم الظاهر ، وقد يكون الحفظ من المعصية في علم الله لكن لا سبيل لنا إليه ، وإن كما نطلب وجوده ، وتحقق إمكانه ، والله تعالى أعلم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١١) ﴿ [آل عمران : ١٠١] وقال نوح لابنه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ ﴾ [هود : ٤٣] فقلوه : نسألك العصمة ، يريد نطلب منك أن تمنعنا من الذنوب بالستر عنها حتى لا نعرف طريقها ولا نتخطر لنا على بال ، ولا تنزل بنا في حال من الأحوال . هـ

قلت : ومن العصمة بالمعنى اللغوي قول صاحب المختصر في خطبته : والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا في القول والعمل . قال شارحه الدردير رحمته : أي يحفظنا ويمنعنا ، قال محشيه الدسوقي رحمته : قوله والله يعصمنا مأخوذ من العصمة ، وهي لغة الحفظ والمنع ، واصطلاحاً ملكة تمنع الفجور أي كيفية يخلقها الله تعالى في العبد تمنعه من ارتكاب الفجور بطريق جري العادة ، والمراد هنا :

المعنى اللغوي ، كما أشار له الشارح ١٠ هـ .

وقد تقدم قريباً عن البيجوري أنه يجوز لنا طلبها بهذا المعنى ، فتنبه .

وقال : العارف بالله الجهميد الفاضل المدقق ولي الله تعالى أبو عبد الله سيدي محمد الخرشي رحمته الله في شرحه لمختصر الشيخ خليل عند قوله أيضاً : والله يعصمنا من الزلل ما نصه : وفيه دليل على الجواز لذلك ١٠ هـ .

قال محشيه - نادرة زمانه وفريد عصره وأوانه أبو الحسن - مولانا علي العدوي رحمته الله : قوله وفيه - أي سؤال المؤلف وقوله لذلك أي لسؤال العصمة المطلقة أي لم تنقيد بذنوب مخصوص وإنما كان ذلك دليلاً لأن المؤلف من العلماء العاملين الذين يقلدون في الأقوال والأفعال ، ومقابل ذلك عدم جواز سؤالها لأن العصمة إنما هي للأنبياء والملائكة .

والجواب أنها في حق الأنبياء والملائكة واجبة ، وفي حق غيرهم جائزة ، وسؤال الجائر جائز ، وإن الذي اختص به الأنبياء وقوعها لهم لا طلبها إلا أن الأدب سؤال الحفظ ، والحفظ في حقنا العصمة ، وقد يكون هذا هو المراد هنا ١٠ هـ وبعبارة أخرى : والوجه كما قال بعضهم أنه إن قصد التوقي من جميع المعاصي والردائل في جميع الأحوال امتنع لأنه سؤال مقام النبوة أو التحفظ من الشيطان والتحصن من أفعال السوء ، فهذا لا بأس به ، ويبقى الكلام حال الإطلاق ، قال بعض : والمتجه الجواز لعدم تعيينه للمحذور واحتماله الوجه الجائر ، أشار لذلك الشيخ أبو بكر ١٠ هـ كلام العدوي رحمته الله هذا ما يتعلق بالعصمة لغةً واصطلاحاً بحسب ما تيسر في الوقت ، وفيه كفاية للمنصف ، وأما غيره فلا كلام معه .

وأما بيان معنى عصمة الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله : هو أنه يجب علينا في حق الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) أن نعتقد أن الله (تبارك وتعالى) حفظ ظواهرهم وبواطنهم من الوقوع في محرم أو مكروه أو خلاف الأولى بل ولا في مباح على وجه كونه مكروهاً أو خلاف الأولى أو مباحاً ، وقلنا في محرم سواء كان صغيراً أو كبيراً ، كان ذلك الصغير صغير خسة كسرقة لقمة وتطفيف كيل ، أو صغير غير خسة كظفر لامرأة أو لأمرء وإن بشهوة ، كان قبل النبوة أو بعدها ، عمداً أو سهواً ، اللهم إلا أن يترتب على وقوع المعصية تشريع فقع سهواً ، وفي الحديث : « إني لا أنسى ولكن أنسى لأسن » وذكر ابن أبي جمرة أن النبي ﷺ لم يسه إلا أربع مرات : سلم من اثنتين ، وقام من ثانية من غير تشهد ، وقام من خامسة ، وأسقط آية من سورة . وأنشد شارح المشارق :

ياسأئلاً عن رسول الله كيف سها والسهو عن كل قلب غافل لاه

قد غاب عن كل شي سره فسها عمن سوى الله في التعظيم في الله

قال الشيخ العارف بالله سيدي أحمد التجاني أعاد الله علينا من بركاته وبركات أمثاله : إن للأكابر صدمات من قوة التجلي بسطوة جلاله ، وربما أفرطت بهم تلك الصدمة عن النظر في غير تلك الطاعة التي هم فيها لقوة التجلي لأن المطلوب منهم في الحضرة مراعاة حقوق الأوقات في كل آن لا يغفل عن حق من الحقوق ، وقد تقع بهم لمات من قوة سلطان التجلي الإلهي فتؤثر فيهم غفلة عن الطاعة التي تأتي بعد فيمضي وقتها وهم ذاهلون عنها لقوة ما هم فيه . هـ

فإن قلت : إنه لا تكليف قبل البعثة فلا معصية قبلها فكيف يقال إنهم

معصومون من المعاصي قبل النبوة والحال أنه لا معصية قبلها .

اجيب : بأن المراد الصورة التي يحكم عليها بأنها معصية بعد البعثة لا تقع منهم قبل البعثة وإن كان لا يعلم أنها معصية إلا بعدها أفاد جميع هذا الشيخ الطالب في حاشيته على صغير ميارة - جزاه الله خيراً - : (وقال الشيخ الطيب) ﷺ لدى قول المرشد أمانة ، ما نصه وهي حفظ جميع جوارحهم الظاهرة والباطنة عن الوقوع في منهي عنه نهي تحريم أو كراهة وذلك بالعصمة ، قال ابن أبي شريف : هي عدم قدرة المعصية أو خلق مانع منها غير ملجئ ، كذا في تحرير شيخنا ، وقال ابن التلمساني : هي عند الأشعرية تهية العبد للموافقة مطلقاً ١ هـ وهي عامة لجميع الأنبياء .

وتفصيل المقام أن يقال : الأنبياء معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع ، وأما غيره من الذنوب بعد النبوة فتعمد الكبائر جوزة الحشوية ومنعه جمهور الطوائف الاسلامية وهو الحق ، وإنما الخلاف في امتناعه بدليل السمع أو العقل ويستثنى من هذا الخلاف تعمد الكذب في الأحكام فعصمتهم منه محل وفاق قاله الكمال ابن أبي شريف ، وأما فعل الكبيرة سهواً بعد الوحي فقال السعد : جوزة الأكثرين كذا في شرح النسفية ، وقال في شرح المقاصد : المذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقاً أي عمداً أو سهواً وأطلق عياض الإجماع على عصمة الأنبياء من الكبائر فظاهره عمداً أو سهواً ، وأما الصغائر بعد النبوة ففي شرح النسفية للسعد تجوز عمداً عند الجمهور خلافاً للجبائي وأتباعه ، وقال في شرح المقاصد : المذهب عندنا منع الصغائر عمداً لا سهواً ، وقد نوقش في نقله في شرح النسفية جوازها عمداً عن الجمهور بأنه خلاف التحرير في النقل ، نبه

عليه الكمال ابن أبي شريف ، قال : وإطلاق ابن الحاجب في مختصره وتبعه العضد وغيره جواز صغيرة غير الخسة ينبغي حمله على السهو لا العمد ، وأما فعل الصغيرة سهواً بعد النبوة فمنعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وأبو الفتح الشهرستاني والقاضي عياض والقي السبكي كما في جمع الجوامع ، وكذا صحح المنع القاضي الحسين من الشافعية ، وحكى ابن برهان في الموجز اتفاق المحققين عليه ، قال الحلبي : والأكثر على جواز الصغيرة سهواً إلا الدلالة على الخسة كسرقة لقمة والتطيف بثمرة وينبهون عليها ، ونحوه قول السيد الجرجاني في شرح المواقف أن الأشاعرة يقولون بجواز صدور الصغائر غير صغائر الخسة سهواً بشرط أن ينبهوا فيتنبهوا وقول السعد في شرح النسفية ، وتجاوز يعني الصغائر سهواً بالاتفاق إلا ما يدل على الخسة . . . إلخ طريقة واهية ، ثم إن السهو بالصغيرة أو الكبيرة عند من جوزه عليهم ليس بذنب فلا ينافي وجوب الأمانة ، قال السعد : هذا كله بعد الوحي وأما قبله فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة ، وذهبت المعتزلة إلى امتناعها لأنها توجب النفرة المانعة عن اتباعهم ، فتقتضى مصلحة البعثة والحق منع ما يوجب النفرة كعهر الأمهات والفجور في الآباء والصغائر الدالة على الخسة ، ومنع الشيعة صدور الصغيرة والكبيرة قبل الوحي وبعده لكنهم جوزوا إظهار الكفر تقيّة .

إذا نقرر هذا : فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود ، وما كان منقولاً بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ، وتفصيل ذلك في الكتب المبسوطة ١ هـ .

قلت : ما نسبه للشيعة من امتناع المعصية قبل النبوة - كبيرة كانت أو صغيرة - قال به بعض أصحابنا واختاره عياض كما في شرح الكبرى ١. هـ كلام الشيخ الطيب وقريب من هذا ما ذكره الشيخ علي قارى في شرح الشفا أول الفصل الثاني من القسم الثالث منها .

وقال الشيخ عبد السلام اللقاني في شرحه لجوهرة والده الشيخ إبراهيم اللقاني رحمهما الله لدى قوله وواجب في حقهم الأمانة ، ما نصه : وهي - أي الأمانة الواجبة في حق الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) - اتصافهم بحفظ الله سبحانه - ظواهرهم وبواطنهم - ولو في حال الصغر من التلبس بمنهي عنه - ولو نهى كراهة - أي كونهم لا يتصور أن يكونوا عند الله إلا كذلك لأنه لو جاز عليهم أن يخونوا الله تعالى بفعل محرم أو مكروه لجاز أن يكون ذلك المنهي عنه مأموراً به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، وهو لا يأمر بمحرم ولا مكروه فلا تكون أفعالهم محرمة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى ١. هـ

قال محشيه : العلامة الأمير رحمهما الله قوله بحفظ الله سبحانه ظواهرهم ... إلخ وما أوهم المعصية لا يجوز النطق به في غير موردته إلا للبيان وأصله حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ فآدم تأول أوله في ذلك مع سيده سر وإن لم نعلمه حتى نقل في اليواقيت عن أبي سعد بن التلمساني لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة كلها ولا تفهم رفعة مقامه على آدم أي وإنما كان يغلبه الحال لضعف ثباته بالنسبة لآدم ، ثم هو من سبق رحمة الله تعالى في سنه التوبة وعدم الإيأس ، ويوسف همّ لولا أن رأى برهان ربه ، فروية البرهان الجلالى مانعة من الهمّ والمراد همّ بالتشديد في التخلص لولا أن رأى برهان الرأفة فتخلص بلطف بها لضعف المرأة ، ولا يليق ما

يقال لهم بالمعصية لا يكتب .

وقوله : ولو في حال الصغر هذا كقبل النبوة نظر الصورة المعصية ، وإلا فلا تكليف إذ ذاك ، وقوله ولو نهى كراهة ولو خلاف الأولى كما ذكره آخرًا ، ولعله راعى هنا من يجعله كراهة خفيفة وعلى فرض إذا وقع منهم صورة ذلك فللتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا ، وكذا المباح العادي على ما هو الأليق بالأدب بل في اتباعهم الأولياء من يصل لمقام تصوير جميع حركاته وسكاته طاعات فيه بالنيات ١ هـ . كلام الشيخ الأمير .

قلت : وسيأتي - إن شاء الله - بسط هذا المعنى بأكثر من هذا المبني في كلام الشعراني رحمته الله في (اليواقيت والجواهر) وقد أطلال في هذا المعنى أيضا القاضي عياض في (الشفاء) في القسم الثالث منها ، وأجاب رحمته الله عن الآتي والأحاديث الموهمة بظاهاها خلاف ما ذكر في حق الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فلا ينبغي للطالب جهل ما ذكر هناك والله الموفق .

وقال البيجوري : رحمته الله لدى قول (الجوهرية) وواجب في حقهم الأمانة ، ما نصه : المراد بالوجوب هنا عدم قبول الانفكاك بالنظر للشرع لأن ما ذكر من الواجبات سمعي ، ولذا قال المصنف فيما يأتي ويستحيل ضدها كما رووا فأشار بذلك لي أن استحالة ضدها بالدليل الشرعي فيكون وجوبها بالدليل الشرعي .

ثم قال : وقوله الأمانة بالنقل والدرج للوزن وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحموظون باطناً من

الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن ، والمراد المنهي عنه ولو صورة فيشمل ما قبل النبوة ولو في حال الصغر ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى بل ولا مباح على وجه كونه مكروهاً أو خلاف الأولى أو مباحاً ، وإذا وقع صورة ذلك فهو للتشريع فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم .

قلت : قال العلامة الجليل أبو العباس أحمد الأجهوري في تقريراته على هذه الحاشية : الظاهر أنه واجب لأن التشريع واجب في حقهم في جميع ما أمروا بتبليغه إلى الخلق ١ هـ

ثم قال البيجوري : فأفعالهم (عليهم الصلاة والسلام) دائرة بين الواجب والمندوب بل في الأولياء الذين هم أتباعه من يصل لمقام تصير حركاته وسكناته طاعة بالنيات ، وبهذا اندفع ما يقال : قد ثبت أنه ﷺ توضاً مرةً مرةً ومرتين مرتين وبال قائماً وشرب قائماً ، وأما المحرم فلم يقع منهم إجماعاً ، وما أوهم المعصية فقول بأنه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

قلت : قال الأجهوري في تقريراته أيضاً : فيكون من قبيل خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامهم وإن كان حسنة بالنسبة إلى غيرهم وما تقدم من أنهم منزهون عن خلاف الأولى محمول على ما هو خلاف الأولى في حق غيرهم ، وأما ما هنا فهو خلاف الأولى بالنسبة لمقامهم خاصة ، وأما بالنسبة لغيرهم فهو مستحسن ١ هـ

ثم قال البيجوري ﷺ : ولا يجوز النطق به في غير مورد إلا في مقام البيان وما وقع من آدم فهو معصية لا كالمعاصي لأنه تأول الأمر لسر بينه وبين سيده وإن لم نعلمه حتى نقل في البواقيت عن أبي مدين : لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة

بتمامها ، فهو - وإن كان منهياً ظاهراً - مأمور باطناً ، وكذا يقال فيما وقع من إخوة يوسف على القول بأنهم أنبياء .

ودليل وجوب الأمانة لهم (عليهم الصلاة والسلام) : أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكننا مأمورين به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ولا خلاف الأولى فلا تكون أفعالهم محرمة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى ، وهذا الدليل وإن كان على صورة الدليل العقلي هو في الحقيقة دليل شرعي لأن دليل الملازمة شرعي وبطلان التالي بدليل شرعي وهو أن الله لا يأمر بالفحشاء . هـ . كلام البيجوري مع زيادة تقريرات الأجهوري نبهت عليها .


وقوله حتى نقل في اليواقيت ... إلخ : قد تقدم ما فيه عن الشيخ الأمير من قوله ولا تفهم رفعة مقامه على آدم ... إلخ كلامه إلا أنه هناك نقل عن الشعراني في (اليواقيت) أن القائل لذلك أبو سعد ابن التلمساني والبيجوري نقل عنه أن القائل لذلك أبو مدين ، فحرر ذلك وسيأتي إن شاء الله كلام (اليواقيت) بلفظه وفي أم البراهين وشرحها للسنوسي ❶ ما نصه : وأما برهان وجوب الأمانة لهم (عليهم الصلاة والسلام) فلأنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه لا تقلب الحرم أو المكروه طاعة في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) لأن الله تعالى قد أمرنا بالاعتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ولا يأمر تعالى بمحرم ولا مكروه ، ولا شك أن الرسل (عليهم الصلاة والسلام) قد أمرنا بالاعتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم إلا ما ثبت اختصاصهم به عن أمهم ؛ قال الله تعالى في حق نبينا ومولانا محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال : ﴿ وَأَتَّبِعُوهُ ﴾

لَمَلَكْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقال : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وقد علم من دين الصحابة ضرورة اتباعه عليه السلام من غير توقف على نظر أصلاً في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام به دليل على اختصاصه به فقد خلعوا نعالهم لما خلع (عليه الصلاة والسلام) نعله ، ونزعوا خواتمهم لما نزع عليه السلام خاتمه وحسر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عن ركبتيهما في قصة جلوسهم على البر كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكاد يقتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق عندما رآه صلى الله عليه وآله وسلم يحلق رأسه وحل من عمرته في قصة الحديبية ، وكانوا يبحثون البحث العظيم عن هيئة جلوسه ونومه وكيفية أكله وغير ذلك ليقصدوا به ، وقال لهم (عليه الصلاة والسلام) لما أرادوا التبتل والانقطاع للعبادة ليلاً ونهاراً : « أما أنا فأكل وأنام وأتزوج النساء » أو كلاماً يقرب من هذا « فمن رغب عن سنتي فليس مني » فانظر كيف ردهم بفعله الذي لا معدل عن الاقتداء به عما قصدوه مع أنه يظهر قبل التأمل أن ما قصدوه هو من أكبر الطاعات وجهاد النفس ، وقد ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما لما سأله السائل عن صبغه بالصفرة ولبسه النعال السبتية ، وكونه لا يحرم إذا أهل هلال ذي الحجة ، وإنما يحرم في يوم التروية ، وكونه إنما يلمس الركبتين اليمانين ، فأجابه بأنه استند في ذلك كله لفعله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أدار صلى الله عليه وآله وسلم راحلته في موضع ، واعتل لذلك بأنه كذلك رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل .

وانظر قول عمر رضي الله عنه للحجر الأسود : لقد علمت أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلك ما قبلتك ، وقد ثبت عن بعض السلف ،

وأظنه الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله أنه كان لا يأكل البطيخ ، فقيل له في ذلك ، فقال : معني من أكله أنه لم يثبت عندي كيف أكله النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالجمله فالاتباع له صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله وأقواله إلا ما اختص به ورؤية الكمال فيها جملة وتفصيلاً بلا تردد ولا توقف أصلاً مما علم من دين السلف ضرورة ، ولا شك أن هذا دليل قطعي إجماعي على عصمته صلى الله عليه وسلم ، وفي معناه عصمة سائر الرسل (عليهم الصلاة والسلام) من جميع المعاصي والمكروهات وأن أفعالهم (عليهم الصلاة والسلام) دائرة بين الواجب والمندوب والمباح ، وهذا بحسب النظر إلى الفعل من حيث ذاته ، وأما لو نظر إليه بحسب عوارضه فالحق أن أفعالهم دائرة بين الوجوب والتدب لا غير لأن المباح لا يقع منهم (عليهم الصلاة والسلام) بمقتضى الشهوة ونحوها كما يقع من غيرهم بل لا يقع منهم إلا مصاحباً لنية يصير بها قرينة ، وأقل ذلك أن يقصدوا به التشريع للغير وذلك من باب التعليم وناهيك بمنزلة قرينة التعليم وعظيم فضلها ، وإذا كان أدنى الأولياء لله يصل إلى رتبة تصير معها مباحاته كلها طاعات بحسن النية في تناولها فما بالك بحجرة الله تعالى من خلقه وهم أنبياءه ورسله (عليهم الصلاة والسلام) لا سيما أفضل الخلق وأشرف العالمين جملة وتفصيلاً بإجماع من يعتد بإجماعه سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ولأجل انحصار أفعالهم في الواجب والمندوب على هذا الذي ذكرناه اقتصرنا في أصل العقيدة على ما يقتضي الاختصاص بهما وهو الطاعة ، وزدنا التقييد بقولنا في حقهم إشارة إلى أن بعض أفعالهم وإن كان يطلق عليها الإباحة بالنظر إلى الفعل في نفسه وبالنظر إلى مطلق وجوده من عامة المؤمنين فهو في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) لكمال معرفتهم بالله تعالى وسلامتهم من دواعي النفس والهوى ، وأمنهم من طوارق الفترات والملل

يقظةً ونومًا ، وتأيدهم بعصمة الله تعالى في كل حال لا يقع منهم إلا طاعة يثابون عليها ، صلى الله وسلم على نبينا وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين .

ولتكن : أيها المؤمن على حذر عظيم ووجل شديد على إيمانك أن يسلب منك بأن تصني بأذنك أو عقلك إلى خرائف ينقلها كذبة المؤرخين ، وتبعهم في بعضها بعض جهلة المفسرين ؛ فقد سمعت الحق الذي لا غبار عليه في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) فشد يدك عليه ، وابذ كل ما سواه ، والله المستعان . هـ .
كلام السنوسي  وجزاء عنا خيرًا .

والحاصل من هذا كله : أنه يجب علينا معشر المكلفين تنزيه الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) عن كل ما يتبادر إلى أفهامنا من ذكر خطاياهم فإن خطاياهم لا ذوق لنا فيها ، وكيف ندعي ذلك ، وهم كما قال القاضي عياض في (الشفاء) : ظواهرهم بشرية ، وبواطنهم ملكية ، وقد تقرر أن الباطن حاكم في الظاهر بشهادة قوله عليه السلام : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وقوله عليه السلام : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » وتقرر أيضًا أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، سواء الرسل منهم أو غيرهم لأنهم معصومون أيضًا ، مع أن المعتمد في المعتقد أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كما هو مبسوط في محله ، وستأتي الإشارة إليه آخر هذه الرسالة إن شاء الله ، فلا يجوز لنا قطعًا نسبة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلى الذنوب على حد ما نتعقله نحن ، وإنما سماها الله تعالى في حقهم معصية وخطيئة وذلك لأن مقامهم الأرفع لا ذوق لولي فيه ، ولو ارتفعت

درجته فضلاً عن غيره من أمثالنا ، وذلك لأنهم معصومون من الوقوع في ذنوبنا ، وغاية خطاياهم إنما هو مثل نظرة إلى مباح أو لفظة رائجتها رعونة ومكروه وباطنها علم وصلاح .

ولله در سيدي ابن عطاء الله : إذ يقول في كتابه (التنوير في إسقاط التدبير) ونص ما قال رحمه الله : فائدة : اعلم أن التدبير والاختيار وباله عظيم وخطره جسيم ، وذلك أنا نظرنا فوجدنا أن آدم عليه السلام إنما حمله على أكل الشجرة تدبيره لنفسه ، وذلك أن الشيطان قال لآدم وحواء عليهما السلام كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا تَهْنِكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢٠) ففكر آدم عليه السلام في نفسه فعلم أن الخلود في جوار الحبيب هو المطلوب الأسنى ، وانتقاله من الآدمية إلى وصف الملكية إما أن يكون لأن وصف الملكية أفضل أو ظن آدم عليه السلام أن ذلك أفضل فلما دبر عليه السلام في نفسه هذا التدبير أكل من الشجرة فما أتى إلا من عين وجود التدبير ، وكان مراد الحق منه ذلك لينزله إلى الأرض ، ويستخلفه فيها ، فكان هبوطاً في الصورة ، وترقياً في المعنى ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمته الله : والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه ، وإنما أنزله إلى الأرض ليكمّله فلم يزل آدم عليه السلام راقباً إلى الله تعالى تارة على معراج التقريب والتخصيص ، وتارة على معراج الذلة والمسكّة ، وهو في التحقيق أتم ويجب على كل مؤمن أن يعتقد أن النبي والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى حالة أكمل منها ، وافهم ها هنا قوله رحمته الله : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (١) [الضحى : ٤] قال ابن عطية : وللحالة الثانية خير لك من الأولى ، وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الحق رحمته الله له التدبير والمشية ، وكان قد سبق من تدبير مشيئة أنه لا بد أن يعمر

الأرض ببني آدم ، وأن يكون منهم كما شاء منهم محسن وظالم لنفسه مبين وكان من تدبير حكمته أن لا بد من تمام ذلك وظهوره إلى عالم الشهادة ، فأراد الحق سبحانه أن يكون تناول آدم للشجرة سبباً لنزوله إلى الأرض ونزوله إلى الأرض سبباً لظهور مرتبة الخلافة التي من عليه بها .

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمته الله أكرم بها معصية أورثت الخلافة وسنت التوبة لمن بعده إلى يوم القيامة وكان نزوله إلى الأرض بحكم قضاء الله تعالى قبل أن يخلق السموات والأرض ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمته الله : والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] فمن حسن تدبير الله تعالى لآدم أكله من الشجرة ونزوله إلى الأرض وإكرام الله تعالى إياه بالخلافة والإمامة .

وإذ قد انتهى بنا المقال إلى ها هنا : فلنتبع الفوائد والخصائص التي منحها آدم عليه السلام في هذه الواقعة لنعلم أن لأهل الخصوص مع الله حالاً ليست لمن سواهم ، والله فيهم تدبير لا يتوجه به لما عداهم ففي أكل آدم من الشجرة ونزوله إلى الأرض فوائد ؛ منها أن آدم وحواء عليهما السلام كانا في الجنة متعرفاً إليهما بالرزق والعطاء والإحسان والنعماء ، فأراد الحق تعالى من خفي لطفه في تدبيره أن يأكلا من الشجرة ليتعرف لهما بالحلم والستر والمغفرة والتوبة والاجتماعية .

أما الحلم فلأنه لم يعالجهما بالعقوبة حين فعلا والحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة على ما صنعت بل يمهك إما إلى عفوه وإنعامه وإما إلى سطوته وانتقامه .
الثاني : هو أن الله تعالى تعرف لهما بالستر ، وذلك أنهما لما أكلا منها وبدت


لهما سواتهما بزوال ملابس الجنة سترهما ، ورقها كما قال الله تعالى : ﴿ وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] فكان ذلك من وجود ستره .

الثالث : هو أنه أراد الحق ﷻ أن يعلمه باجتماعه له ، وينشأ عن اجتماعه مقامان : التوبة إليه ، والهداية من عنده ، فأراد الحق سبحانه أن يعرف آدم ﷺ باجتماعه له وسابق عنايته فيه ، فقصى عليه بأكل الشجرة ثم لم يجعل أكله إياها سبيلاً لإعراضه عنه ولا لقطع مدده منه ، بل كان في ذلك إظهار لودعه ﷻ فيه وعنايته به كما قالوا من سبقت له العناية لم تضره الجناية ، ورب ود تقطعه المخالفة ، والود الحقيقي هو الذي يدوم لك من الواد لك - موافقاً كنت أو مخالفاً - وليس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبَّهُ ﴾ [طه : ١٢٢] دليل على حدوث اجتنائية الحق فيه بل كان قبل وجوده ، وإنما الذي حدث بعد ذنب ظهور أثر الاجتنائية من الله له فهو الذي قال فيه الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبَّهُ ﴾ [طه : ١٢٢] أي أظهر له أثر الاجتنائية فيه والعناية به بتيسره للتوبة إليه والهداية من عنده فصار في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبَّهُ فَابَّ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه : ١٢٢] تعريفات ثلاث : الاجتنائية ، والتوبة - التي هي نتيجةها - والهدى - الذي هو نتيجة التوبة - فافهم ثم أنزله إلى الأرض فتعرف له بحكمته كما تعرف له في الجنة ببواهر قدرته ، وذلك لأن الدنيا محل الوسائط والأسباب فلما نزل آدم ﷺ إلى الأرض علم الحرث والزراعة ، وما يحتاج إليه من أسباب معيشته ليحققه الله تعالى بما أعلمه به من قبل أن ينزله بقوله : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه : ١١٧] والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ تعب الظواهر لا الشقاوة التي ضد السعادة والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ ولم يقل فتشقياً لأن المتاعب والكلف

إنما هي على الرجال دون النساء كما قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ [النساء : ٣٤] ولو كان المراد شقاء بالقطعية أو وجود الحجة لقال : فتشقى ، فدل الإفراد على أنه ليس الشقاء هنا بقطعية ولا إبعاده مع أنه لو ورد كذلك لحملناه على الظن الجميل وأرجعناه إلى المتاعب الظاهرة على التأويل .

فائدة جلية : اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً فيما أن يكون نسي الأمر فتعطى الأكل وهو له غير ذاك ، وهو قول بعضهم ، ويحمل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُحِذْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥] أو إن كان تناوله ذاكراً للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فلحبه في الله وشفعه به أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره والبقاء عنده أو ما يؤديه إلى الملكية لأن آدم عليه السلام عاين قرب الملكية من الله ، فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل ، أو التي هي في ظنه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضاً أيهما أفضل الملكية أم النبوة لاسيما وقد قال تعالى : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ﴾ [١١] [الأعراف : ٢١] قال آدم عليه السلام : ما ظننت أن أحداً يحلف بالله كاذباً فكان كما قال تعالى : ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف : ٢٢] هـ . كلام ابن عطاء الله في (التنوير) رحمته وجزاه عنا أفضل الجزاء .

وقال الخازن في تفسيره : في سورة الأعراف عند قوله تعالى : ﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١١] فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴿[الأعراف : ١٩ - ٢٠] الآية ما نصه : فصل

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في الرفعة والعلو والمعرفة بالله ﷻ مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو ؛ فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ، وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصٍ كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله ﷻ ذنوباً وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم ١٠ هـ كلام الخازن  وجزاه خيراً .

وقال أيضاً في تفسيره في سورة طه عند قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] ما نصه : فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك قال الإمام فخر الدين الرازي : اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة : أحدها : ما يقع في باب الاعتقاد ، وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم ، الثاني : ما يتعلق بالتبليغ فقد اجتمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض وإلا لارتفع الوثوق بالأداء ، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً ولا سهواً ، ومن الناس من جوز ذلك سهواً قالوا : لأن الاحتراز عنه غير ممكن ، الثالث : ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطوهم فيها على سبيل العمد ، وأجازة بعضهم

على سبيل السهو ، الرابع : ما يقع في أفعالهم فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال : أحدهما : قول من جوز عليهم الكبائر ، الثاني : قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد - وهو قول أكثر المعتزلة ، الثالث : لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل - وهو قول الجبائي ، الرابع : أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ ، الخامس : أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل ، وهو قول الشيعة ، واختلف الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال : أحدها قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة - وهو قول الشيعة ، الثاني : قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم - وهو قول أكثر المعتزلة ، الثالث : قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة - وهو قول أكثر أصحابنا وأبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة ، قال الإمام : والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب - لا صغيرة ولا كبيرة - من حين جاءتهم النبوة ، ويدل عليه وجوه :

أحدها : لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة ، وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية في الرفعة والشرف .

الثاني : لو صدر منه وجب لأن لا يكون مقبول الشهادة ، فكان أقل حالاً من عدول الأمة ، وذلك غير جائز أيضاً لأن معنى النبوة والرسالة هو أن يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم وأيضاً فإنه يوم القيامة شاهد على الكل .

الثالث : لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه ، وذلك محال .

الرابع : ثبت ببديهة العقل إنه لا شيء أقبح بمن رفع الله درجته ، واثمنه على

وحيه وجعله خليفته في عبادة وبلاده يسمع ربًا يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحًا لغرضه ، واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] وقال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنَهَكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] .

الخامس : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغي فعله ، وترك ما ينبغي تركه ، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وناكرين لكل منهي ، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم .

السادس : قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] وقال تعالى في حق موسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [٤٥] إِنَّا اخْتَصَيْنَاهُمْ بِنِجَالَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَادْكُرْ إسماعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ [ص : ٤٥ - ٤٨] وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة وذلك ينافي صدور الذنب عنهم ، وذكر غير ذلك من الوجوه ، قال : وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه .

والجواب عنها : أن نقول : إن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبوة ، وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال أن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبياً ، وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة ، وإن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة .

وقال القاضي عياض : وأما قصة آدم وقوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٣١ ﴾ [طه : ١٢١] أي جهل ، وقيل : أخطأ ؛ فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١٣٢ ﴾ [طه : ١١٥] أي نسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه ، وقيل : لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ، ولكنه اغتر بحلف إبليس له : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَئِنَ التَّصَحَّيْتُ ۝١٣٣ ﴾ [الأعراف : ٢١] وتوهم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً ، وقيل : نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١٣٢ ﴾ أي قصداً للمخالفة ، وقيل : بل أكل من الشجرة متأولاً ، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهى عنها لأنه تأول نهى الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ، ولهذا قيل : إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة ، وقيل : تأول أن الله تعالى لم ينهه عنها نهى تحريم .

فإن قلت : إذا نقيت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله تعالى ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٣١ ﴾ [طه : ١٢١] وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم ، وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه .

قلت : إن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده

سلطانه وقوة بطشه مما جعلهم مما يحملهم على الخوف منه عجلالة والإشفاق من
المؤاخذه بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم في تصرفهم بأمر لم ينهوا عنها ولم يؤمروا
بها ، وأتوها على وجه التأويل أو السهو ، وتزبدوا من أمور الدنيا المباحة ، أو
أخذوا عليها وعوتبوا بسببها ، أو حذروا من المؤاخذه بها فهم خائفون وجلون
وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها
ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من
أحوالهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين أي يرونها بالإضافة إلى علو
أحوالهم كالسيئات ١. هـ كلام الخازن رحمته وجزاه خيراً .

وقال : الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام الجامع بين الشريعة والحقيقة ذو
المواهب الربانية والمعارف الصمدانية سيدنا ومولانا عبد الوهاب الشعراني رحمته
في كتابه المسمى باليواقيت والجواهر ما نصه : (المبحث الحادي والثلاثون في بيان
عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) من كل حركة أو سكون أو قول أو فعل
ينقص مقامهم إلا كمل ، وذلك لدوام عكوفهم في حضرة الله تعالى الخاصة فتارة
يشهدونه ﷺ وتارة يشهدون أنه يراهم ولا يرونه ولا يخرجون أبداً عن شهود هذين
الأمرين ومن كان مقامه كذلك لا يتصور في حقه مخالفة قط حقيقية وإنما هي
مخالفة صورية كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وتسمى هذه حضرة الإحسان ،
ومنها عصم الأنبياء وحفظ الأولياء ، فالأولياء يدخلون ويخرجون ، والأنبياء
مقيمون فيها ، ومن أقام فيها من الأولياء كسهل بن عبد الله التستري وسيدي
إبراهيم المتبولي فإنما ذلك بحكم الإرث والتبعية للأنبياء استمداداً من مقامهم لا
بحكم الاستقلال فافهم .

إذا علمت ذلك فلنذكر لك نقول المتكلمين في مبحث العصمة ثم نقول الصوفية فنقول وبالله التوفيق :

قال أئمة الأصول : الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) كلهم معصومون لا يصدر عنهم ذنب - ولو صغيرة سهواً - ولا يجوز عليهم الخطأ في دين الله قطعاً وفقاً للأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني وأبي الفتح الشهرستاني والقاضي عياض والشيخ تقي الدين السبكي وغيرهم ، وقال جماعة : لا ينبغي إجراء الخلاف في الأنبياء والمرسلين أبداً ، وإنما الخلاف في الأنبياء الذين لم يرسلوا ، وهو كلام محشو أدباً ، وذلك لتوقف حجية الرسل على القول بالعصمة ، وأيضاً فإن الرسول مشرع لنا بجميع أقواله وأفعاله وتقريراته ، فلو أنه صدق عليه الوقوع في معصية ما لصدق عليه تشريع المعاصي ، ولا قائل بذلك أبداً ، وعبرة الشيخ محيي الدين في الفتوحات ، ويشترط في حق الرسول العصمة في جميع ما يبلغه عن الله ﷻ فإن عصم في غير ما يبلغه فمن مقام آخر كان يخاطب بالتأسي به فيصير ذلك التأسي أصلاً لا يجوز عليه فعل حرام قطعاً ولا فعل مكروه إلا لبيان الجواز . هـ

وكان إمام الحرمين رحمته الله يقول : من جوز وقوع الصغيرة من الأنبياء سهواً قيدها بغير الدالة على الحسة كسرقة لقمة والتطيف في الكيل والوزن بشمرة مثلاً ثم لا بد أن ينبهوا عليها على الفور ، وأما استغفاره عليه السلام أكثر من سبعين مرة كما ورد فكان لأجل الترقى في المقامات ، فكان يستغفر من كل مقام ترقى عنه ، وثم مقام رفيع وأرفع .

وكان الإمام الجنيد يقول في حديث « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في

اليوم واللييلة أكثر من سبعين مرة « إن المراد « إنه ليغان على قلبي » مما اطلعت عليه مما يقع لأمتي بعدي من المخالفات فأستغفر الله لهم أكثر من سبعين مرة اهـ

وقال جماعة من علماء الأصول : الأنبياء الذين لم يرسلوا معصومون قطعاً من غير خلاف ، ومن قال فيهم غير ذلك فعليه الخروج من عهده بين يدي الله ﷻ وبين يديهم ؛ فإن بداية النبوة تؤخذ من بعد انتهاء الولاية فمن أين يتعل الواحد منا اسم ذنوب الأنبياء ، وقد قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين فافهم ، والزم الأدب ، وأجب عن الأنبياء ﷺ جهداً كل من كان في حجاب عن مقامهم ، وأي فائدة لتجريح من عدله الله تعالى ، هل يثاب أحد على ذلك ؟ لا والله بل ذلك إلى الأثم أقرب .

وقال الشيخ أبو طاهر القزويني في الباب الخامس والثلاثين من كتاب سراج العقول يجب تنزيه الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) عن كل ما يتبادر إلى أفهامنا من ذكر خطاياهم فإن خطاياهم لا ذوق لنا فيها ، وإن الله تعالى لما اصطفى الأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة رشحهم لذلك في مبادئ أمورهم وحماهم من مكاييد الشيطان وصفى سرائرهم من الكدورات وشرح صدورهم بنوره وزينهم بالأخلاق الجميلة وطهرهم عن الرجس والردائل كما روي في الصحيح « إن جبريل أتى إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الصبيان فأخذه وصرعه وشق عن قلبه فاستخرج منه شبه علقة ، وقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم ثم لأمه وعاد كما كان في مكانه » .

قال : وصورة الشق ليست مثل شق الذبح بالسكين وإنما المراد به كشف

باطنه بيد جبريل من غير ألم يصيبه أو دم يصيبه وحاشا جاشاه ﷺ من ذلك قال :
وهذا قريب من إخراج الله الذرية من ظهر آدم ﷺ بمسح اليد كما يليق بجلاله
وسبب توقف العقول الضعيفة ووقوع الاشتباه في مثل ذلك تعذر الخروج عن
المألوفات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾ [الشرح : ١] فلم
يكن فيه بعد ذلك للهوى منفذ ولا للشيطان عليه سبيل ، وأطال في ذلك .

وقال الشيخ العارف بالله تعالى الجامع بين الطريقتين سيدي عبد العزيز
الدريني : لا يجوز قطعاً نسبة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلى الذنوب
على حد ما تتعلق به نحن وإنما سماها الله تعالى في حقهم معصية وخطيئة وذلك لأن
مقامهم الأرفع لا ذوق لولي فيه ، ولو ارتفعت درجته فضلاً عن غيره من أمثالنا
وذلك لأنهم معصومون من الوقوع في ذنوبنا وغاية خطاياها إنما هو مثل نظرة إلى
مباح أو لفظة رائحتها رعونة ومكروه وباطنها علم وصلاح مثل قول إبراهيم
(عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) في معرض إقامة الحجة على قومه ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وكما وقع له من قوله ﴿ إِنْ فِي سَقِيمٍ ﴾ [الصفات : ٨٩]
حتى لا يخرج مع قومه إلى ما دعوه إليه من اللهو واللعب أي مآلي إلى السقم ونحو
ذلك انتهى .

وقال : الشيخ في الباب الثاني والسبعين وثلاثمائة من (الفتوحات المكية)
يجب قطعاً تنزيه الأنبياء مما نسب إليهم بعض المفسرين من الطامات الكبرى مما لم
يجئ في كتاب ولا سنة صحيحة ، وهم يزعمون أنهم قد فسروا قصصهم التي
قصها الله في ذلك وجاؤا فيه بأكبر الكبائر ، وذلك كمسألة إبراهيم الخليل ﷺ
وما نسبوه إليه من وقوع الشك بحسب ما يتبادر إلى الأذهان ، وما نظروا في

قوله ﷺ : « نحن أولى بالشك من إبراهيم » فإن إبراهيم عليه السلام لم يشك في إحياء الله الموتى معاذ الله أن يشك نبي في مثل ذلك ، وإنما كان يعلم أن لإحياء الله الموتى طرقاً ووجوهاً متعددة لم يدرك بأي وجه منها يكون إحياء الله تعالى للموتى ، وهو مجبول على طلب الزيادة من العلم ، فعين الله تعالى له وجهاً من تلك الوجوه ، فسكن ما كان عنده ، وعلم حينئذ كيف يحيي الله الموتى ، فما كان السؤال إلا عن معرفة الكيف لا غير ، وكذلك القول في قصة سليمان وما نسبوه إلى الملكين بابل هاروت وماروت كل ذلك لم يرد في كتاب ولا سنة ، وإنما ذلك نقل عن اليهود فاستحلوا أعراض الأنبياء والملائكة بما ذكروا لهم من تجريحهم أنبياء الله تعالى وملؤوا تفاسيرهم للقرآن من ذلك ، فالله تعالى يحفظنا وإخواننا من غلطات الأفكار والأفعال والأقوال آمين ١٠ هـ

وقال أيضاً في الباب الرابع والخمسين ومائة : ينبغي للواعظ إن يراقب الله تعالى في أنبيائه وملائكته ويستحي من الله ﷻ ويحجب الطامات في وعظه كالقول في ذات الله بالفكر والكلام على مقامات الأنبياء ﷺ من غير أن يكون وراثاً لهم فلا يتكلم قط على زلاتهم بحسب ما يتبادر إلى أذهان الناس بالقياس على غيرهم فإن الله تعالى قد أثنى على الأنبياء أحسن الثناء بعد أن اصطفاهم من جميع خلقه ، فكيف يستحل أعراضهم بما ذكره المؤرخون عن اليهود ، قال : ثم إن الداهية العظمى جعلهم ذلك تفسيراً لكلام الله تعالى ، ويقولون في تفسيرهم : قال المفسرون في قصة داود : إنه نظر إلى امرأة أوريا فأعجبته ، فأرسله في غزاة ليموت ، فيأخذها ، وكهولهم في قصة يوسف عليه السلام أنه هم بالمعصية ، وأن الأنبياء لم يعصموا عن مثل ذلك ، وكهولهم في قصة قوم لوط لو أن لى بكم قوة أو

آوي إلى ركن شديد العجز والتحري ونحو ذلك ، ويعتمدون على تأويلات فاسدة وأحاديث واهية نقلت عن قوم قالوا في الله ما قالوا من البهتان والزور ؛ فمن أورد مثل ذلك في مجلسه من الوعاظ مقتله الله والأنبياء والملائكة ؛ لكونه جعل دهليزاً ومهاداً لمن في قلبه زنيغ يدخل منه إلى ارتكاب المعاصي ويحتج بما سمعه منه في حق الأنبياء ، ويقول : إذا كان الأنبياء وقعوا في مثل ذلك ، فمن أكون أنا ؟ ! وحاشا الأنبياء كلهم عن ذلك الذي فهمه هذا الواعظ ، فوالله لقد أفسد هذا الواعظ الأمة ، وعليه وزر كل من كان سبباً لاستهاتته بما وقع فيه من المعاصي ، ولكن قد ورد أنه « لا تقوم الساعة حتى يصعد الشيطان على كرسي الوعظ ويعظ الناس » وهؤلاء من جنوده الذين يتقدمونه . هـ

فإن قلت : فما الفرق بين العصمة والحفظ ؟

فالجواب : الفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من المباح لهُوى أنفسهم بخلاف الأولياء ، فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه لهُوى أنفسهم كغيرهم ، وإنما يفعلونه على جهة التشريع أنه مباح فهو واجب عليهم حينئذ - يعني فعل المباح - إذ التبليغ واجب عليهم ، ذكره الشيخ محيي الدين في آخر باب سجود التلاوة من (الفتوحات المكية) .

وقد حيب لي : أن أذكر لك بعض أجوبة عن بعض الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) مبتدئاً بآدم عليه السلام خاتماً بمحمد عليه السلام فتحاً لباب الأجوبة عن باقيهم ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم : أن آدم (عليه الصلاة والسلام) أول فاتح لباب التوبة حين وقع على يديه

ما وقع من أكل الشجرة بعد النهي عنها ، فكانت معصية صورية ليعرف بنيه كيف يفعلون إذا وقعوا في المنهي عنه لأنه عليه السلام هو فاتح القبضة ، ولو لم يقع ذلك على يديه لوقع على يد غيره ، وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين من (الفتوحات) : كانت معصية آدم عليه السلام من عين نعمة الله تعالى عليه لأن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا ينقلون قط من حال إلا لأعلى منها ؛ فإن الله تعالى اجتباهم واصطفاهم بسابق العناية فلا يكر الحق تعالى بهم أبداً .

قال : ومن هنا يعلم أن هبوط آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض لم يكن عقوبة لهما وإنما كان عقوبة لإبليس وحده ؛ فإن آدم عليه السلام أهبط بصدق الوعد السابق بأن يكون خليفة في الأرض من بعد ما تاب الله عليه واجتباؤه وبعد ما تلقى الكلمات من ربه بالاعتراف فكان اعترافه (عليه الصلاة والسلام) في مقابلة قول إبليس أنا خير منه . . . إلخ ، فعرفنا الحق تعالى مقام الاعتراف عند الله تعالى وما ينتجه من السعادة لتتخذ ذلك طريقاً إذا خالفنا أوامر ربنا ، فكان ما وقع من آدم كالتعليم لبنيه إذا وقعوا في مخالفة كيف يون خلاصهم وتنصلهم منها كما مر ، وأما إبليس فعرفنا الحق تعالى بدعواه الخيرية أن كل من اتبعه في هذه الدعوى طرد من حضرة الله ولعن ورجم لنحذر من أن نقول نحن خير من فلان ، فلذلك كان هبوط إبليس إلى الأرض عقوبة له دون آدم ، فما هبط إبليس إلى الأرض إلا لاكتساب الأوزار بخلاف آدم عليه السلام فإنه أهبط للخلافة والترقي في الدرجات ؛ فإن جميع حسنات بنيه في صحائفه ، وليس عليه من أوزارهم شيء .

فإن قلت : إن معصية إبليس لا تقتضي تأييد الشقاء لأنه لم يشرك بالله مثنياً ، وإنما افتخر على آدم عليه السلام بما جبله الله عليه من الطبيعة التي هي النار لكونها

أقرب إلى اسمه تعالى النور لما فيها من الإضاءة بخلاف الظلمة .

فالجواب : إنما جاء الشقاء الأبدي من اعتراضه على الله ونسبة أفعاله إلى غير الحكمة مع إضماره في نفسه أنه لو بقي أبد الآبدين لوسوس للناس بالضلال فجوزي بنظير فعله ونيته ورجع عليه وزر كل مشرك على وجه الأرض ، وقد قال الشيخ أبو مدين : إنما خلد أهل الجنة والنار بالنيات وإلا فكان العدل أن يعذب الكفار بمدة عصيائهم .

فإن قلت : فهل قوله حين تبرأ من الذين كفروا بقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦] توحيد يسعد به أم لا ؟

فالجواب : ليس هو بتوحيد لأنه لا يقدر يوسوس لأحد بالشرك حتى يتصوره في نفسه على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك زالت عنه صورة التوحيد فإذا تصورهما في نفسه كهذه الصورة فقد خرج عن التوحيد ضرورة فلم يسعد به فكان إبليس مشركاً في نفسه بلا شك ولا ريب ، ثم لو قدر أن صفة الشرك ذهبت من نفسه لم يجد المشرك في نفسه من يحدثه بالشرك فاعلم أن إبليس أول مشرك بالله ، وأول من سنَّ الشر فهو أشقى العالمين .

فإن قلت : فما الحكمة في قوله تعالى في آدم عليه السلام عصى وفي إبليس أبى ؟

فالجواب : ما قاله الشيخ في الباب السابع والستين وثلثمائة أن ذلك من علوم الأسرار ولا يذكر إلا مشافهة لأهله .

فإن قلت : فهل إبليس يجهل شيئاً من شرائع الأنبياء عليهم السلام ؟

فالجواب : هو عالم بها كلها على الكمال ، وذلك ليوسوس للناس بضد ما

أمرت الأنبياء به ، ولولا علمه بها لربما التبس عليه الأمر ، فأمر الناس بما أمرت به الرسل ، وذلك لا يصح منه ، وقد ذكر الشيخ في باب الحج من (الفتوحات) أن من أغرب الأمور أن إبليس يقف كل سنة مع الناس ولكن لا يقف في عرفة وإنما يقف في عرنة بفتح الراء ، وهي من عرفات فيقف يبكي على ما فاتته من طاعة الله ﷻ ويحزن على ما فاتته ولم يراه يحصل لأهل الموقف من المغفرة العامة فيقف لعرنه لعلمه أنها من عرفة رجاء أن تصيبه الرحمة من باب الامتحان لا من باب الأعمال الصالحة ، قال : وإنما لم تطرده الملائكة عن عرنة لعلمهم بأن عنده معرفة الله ﷻ ودخول المشركين المساجد جائر في الجملة ١ هـ

فإن قلت : فما الحكمة في وقوع آدم عليه السلام في أكله من الشجرة ثم نزوله بعد ذلك إلى الأرض التي هي دون الحضرة التي كان فيها ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب التاسع والثلاثين أن الحكمة في ذلك كله تأتيس العلماء والأولياء إذا وقعوا في زلة فأنخطوا عن مقامهم العلي ، وظنوا أنهم نقصوا بذلك عند الله تعالى فيعلمون بقصة آدم عليه السلام أن ذلك الانحطاط الذي أحسوا به في نفوسهم لا يقضي بشقائهم ولا بد فرما يكون هبوطهم كهبوط آدم للكريم ، والحق تعالى لا يتحيز ، والوجود العلوي والسفلي كله حضرته ، فليست السماء التي أهبط منها أقرب إلى الحق من الأرض ، وإذا كان الأمر على هذا الحد فعين هبوط الولي في عيون الناس بعد الزلة وذله وانكساره بسببها هو عين الترقى فقد انتقل بالزلة إلى مقام أعلى مما كان فيه لأن علو الولي إنما يكون بزيادة المعرفة والحال ، وقد زاد هذا الولي بمجصول الذلة والانكسار من العلم بالله تعالى ما لم يكن عنده قبل الزلة ، وهذا هو عين الترقى ، فعلم أن من فقد هذه الحالة في زلته ولم

يندم ولم ينكسر ولا ذل ولا خاف مقام ربه فهو في أسفل سافلين ، ونحن ما نتكلم إلا على زلات أهل الله ﷺ إذا وقعت منهم قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾ [آل عمران : ١٣٥] الآية ، وقال ﷺ : « الندم توبة » وقيل لأبي يزيد البسطامي : أيعصى العارف ، فقال : وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فلم يقل لا يعصى ، ولا أنه يعصى أدباً مع الله تعالى ، ومعنى : وكان أمر الله قدراً مقدوراً أي أن معصية أهل الله تعالى بحكم القدر النافذ فيهم لا غير ، ولا يصح في حقهم أن يقعوا في المعاصي قط بشهوتها كما يقع فيها غيرهم لأن في ذلك انتهاكاً لحرمات الله تعالى وأهل الله تعالى محفوظون من شهوة المعاصي والتلذذ بها ؛ فإن الإيمان المكتوب في قلوبهم يمنعهم من ذلك قال سيدي علي الخوَّاص (رحمه الله تعالى) : ومن حكمة وقوع العبد في المخالفة للأوامر وقوعه في مقام الإذلال بالطاعات وعُجْبُهُ بها فإن توالي الطاعات الصرف ليلاً ونهاراً تورث غالب الناس الزهو والعجب وشهود أنه خير من كثير من الناس ، وهذا غاية البعد من حضرة الله ﷺ وما جعل الله تعالى التكليف إلا ليدل بها النفوس من بين يديه ، ولا يرى بها المكلف شرف نفسه على أحد من خلق الله تعالى ؛ فإن ذلك ذنب إبليس الذي أخرج به من حضرة الله ﷺ وكل من ادعى مقام القرب مع عدم الإذلال فهو كاذب اهـ .

فإن قلت : قد ورد أن آدم ﷺ لما أكل من الشجرة اسودَّ جسده ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن ذلك يؤذن بأن آدم ﷺ أثرت فيه المعصية نقصاناً .

فالجواب : ليس اسوداد بدنه علامة على نقصه بل هو علامة على حصول سيادته كما ذكره الشيخ في الباب الثاني والسبعين في الكلام على حديث « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم » قال :

وكذلك القول في اسوداد جسد آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة يدل على سيادته لأن ذل أورثه الاجتباء والاصطفاء ولولا أكله من الشجرة ما ظهرت سيادته ، وكذلك الحجر الأسود لما خرج من الجنة وهو أبيض فلا بد من أثر يظهر عليه تعرف به سيادته في دار الدنيا إذا رجع إلى الجنة ويتميز به عن أقرانه ويظهر به عليه خلعة التقريب الإلهي في جعله يمين الله في الأرض ولم يكون من الأكوان ما يدل على السيادة إلا اللون الأسود ، فكساه الله تعالى لون السواد إعلماً لنا بأنه صار سيداً بخروجه من الجنة إلى الدنيا .

قلت : ولعل من هذا القبيل جعل ستر الكعبة أسود ، وكذلك عمائم خلفاء بني العباس وغيرهم ، ولعل ذلك هو سر لبسه عليه السلام العمامة السوداء يوم فتح مكة إظهاراً لسيادته على الخلق من باب التحدث بالنعمة ، فعلم أن معنى قوله في الحديث « فسودته خطايا بني آدم » أي جعلته سيداً بتقبيلهم إياه وكذلك القول في اسوداد جلد آدم هو يدل على سيادته لأن هبوطه إلى الأرض هبوط خلافة له للناسل والترقي .

فإن قلت : فما الوجه الجامع بين سواد الحجر وجلد آدم وبنيه ؟

قلنا : وجهه الاجتباء والسيادة فكان تقبيل الحجر يشبه الاجتباء والاصطفاء لآدم عليه السلام وبنيه بسبب خطاياهم .

فإن قلت : فلم أمر الناس بالسجود على هذا الحجر وتقبيله والتبرك به ؟

فالجواب : إنما أمروا بذلك ليكون كفارة لهم من خطاياهم فظهرت سيادته بذلك ، وحصل به تمييز القائم بأداب العبودية والمخل بالقيام بها ؛ فإن بني آدم ربما

زهوا بالصورة التي خلقوا عليها وبالكلمات التي خلعها الحق عليهم على ما سواهم ، فأمرهم الحق تعالى إلى جهة الجماد الذي هو الكعبة مع أنه أنقص رتبة منهم فمنهم من أطاع ، فرضي الله تعالى عنه ، ومنهم من عصى فسخط الله عليه .

فإن قلت : قال القوم : إن حصول معرفة الله ﷻ للعبد تمنعه من الوقوع في معصية الله وآدم ﷺ من رؤوس العارفين بالله ﷻ فكيف وقع في أكله من الشجرة ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب السابع ومائتين أن المعرفة تمنع العارف بلا شك ، ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوقع أحداً من الأكابر فيما قدره عليه لحكمة سبق بها علمه فلا بد أن يزين الله تعالى له الوقوع في ذلك بتأويل يقع له فيه وجه الحق ولا يقصد بذلك العمل انتهاك الحرمة كما وقع لآدم ﷺ ثم إذا وقع ذلك المقرب في المعصية بذلك التأويل أظهر الله له فسادة فإذا تحقق بعد الوقوع أنه أخطأ علم أنه عصى فعند ذلك يحكم عليه لسان الشريعة بأنه عصى ويشهد على نفسه عند نفسه أنها عصت ، وأما في حال وقوع الفعل منه فلا لأجل شبهة التأويل فهو كالمجتهد في زمان فتواه بأمر ما اعتقاداً منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة وفي ثاني الحال يظهر له بالدليل أنه أخطأ فيكون لسان الظاهر يحكم عليه أنه أخطأ في زمان ظهور الدليل لا قبل ذلك .

فإن قلت : فهل تكون عقوبة العارفين على الذنب أشد أم عقوبة الجاهلين ؟

فالجواب : أن عقوبة العارفين بالله تعالى أشد لشدة اعتناء الحق تعالى بهم وربما كانت زلة العارف ترجح على سبعين زلة من زلات الجاهل ، ولو لم يكن من

عقوبة العارف إلا ما يحصل عنده من الاستحياء والخجل لكان ذلك كفاية بل ربما كان ذلك الخجل أشد على العارف من العقوبة الظاهرة ، كما أن المغفرة أشد عليهم من العقوبة ، وذلك لأن العقوبة جزاء فيجد العبد الراحة عند الاستيفاء منه فهو في منزلة من أوفى دينه ، والغفران ليس كذلك ، فلا يزال العارف ملازم الخجل والحياء مدة طويلة ، وذلك أشد من العقوبة الشديدة في يوم. وتنقضى كما قال تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] ولهذا المعنى الذي ذكرناه كان الحق تعالى إذا اعتنى بعبدته وغفر له ذنبه أحال بينه وبين تذكره وأنساه إياه لأنه لو تذكره لاستحيا ولا عذاب على النفوس الطاهرة الشريفة أعظم من أن ينعم عليها من هي مسيئة في حقه حتى إن صاحب الحياء يود أنه لم يكن شيئاً مذكوراً كما قالت الكاملة ﴿ يَلْتَنِي مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْ حَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] مع إن حياءها إنما كان من المخلوقين حين نسبوا إليها ما لا يليق بها ولا بأبيها وأمها كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨] فبرأها الله تعالى مما نسب إليها لأجل ما نالها من عذاب الحياء من قومها فكيف بالحياء من رب العالمين فيما يحققه العبد من تعدي حدوده ومجاهرته بالمعاصي .

فإن قلت : فهل يلزم من كون الحق تعالى ينسي عبده سيئاته أن تكون بدلت حسنات كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾

[الفرقان : ٧٠]

فالجواب : لا يلزم ذلك ولكن قال بعض العارفين إن في نسيان العبد ذنوبه بالكلية بشرى عظيمة من الله بأنه بدل سيئاته حسنات ؛ فإن من علامة التبديل

نسيان الذنب ، وذلك أن الذنب إذا بدله الله بحسنات لم يبق للذنب صورة وجود من الوجودات الأربع ، ويؤيد ذلك قول بعض العارفين كل ذنب لم يذهب من ذهن الإنسان فليحدث له توبة جديدة فإنه على الآن لم يبدل ، وليكثر من الاستغفار طول عمره فوالله ما خلقنا الله إلا لأمر عظيم .

وسمعت سيدي علياً الخواص (رحمه الله تعالى) يقول : إنما أنسى الله تعالى خواص أوليائه ذنوبهم رحمة بهم لأن العبد كلما تذكر ذنبه فكأنه يجعل بينه وبين الله تعالى صورة قبيحة تؤذن بالعبد ، ولهذا قالوا : ذكر الجفاء في وقت الصفاء جفاء ١٠ هـ .

وسمعت أخي أفضل الدين (رحمه الله تعالى) يقول : لما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : ٢] كان ذكر الذنب عليه أشد من الذنب لصفاء الحضرة التي كان فيها على أن تلك الذنوب لا يتعلّقها مثلنا كما مر لأنها ذنوب بالنظر إلى مقامه الشريف من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين كما بلغنا أن شخصاً من العارفين مرّ على جدار فاتحبه عنده بالبكاء ، فقيل له : ما سبب هذا البكاء ؟ فقال : وقع لي أنني تيممت من تراب بغير إذن صاحبه وهذا الذنب لا يكاد يبكي عليه أحد ولو من صالحى زماننا فضلاً عن غيرهم .

وقال الشيخ محيي الدين في الباب السابع ومائتين من (الفتوحات) : من حين نزل قوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : ٢] وتأمّل النبي ﷺ من ذكر الذنب فما نزل عليه جبريل قط إلا في صورة دحية وكان قبل نزول هذه الآية ينزل عليه في أي صورة شاء ، وكان دحية أجمل أهل زمانه ،

فكان الحق تعالى يقول لحمد ﷺ بلسان الحال ما بيني وبينك إلا صورة الجمال والحسن لأنك أعظم حبيب .

وفي آداب الملوك : : إنه ينبغي للوزراء أن لا يكون في أحد منهم عاهة من برص أو جذام أو تشويه خلقية وأن لا يحضر بين يديهم قط أحد في بدنه عاهة بل يقضون حاجته من غير أن يوقفوه بين يدي السلطان فافهم .

وكان : من كمال دحية أنه ما رآته حامل دخل المدينة إلا ألقت ما في بطنها لما أدركها في نفسها من شهود ذلك الجمال وإنما لم تلق الحوامل ما في بطنها عند رؤية رسول الله ﷺ مع أنه أجمل من دحية بما لا يتقارب لأنه مشرع والناس مأمورون برويته فستر الله تعالى جماله عن غالب الناس رحمة بهم بخلاف دحية لم يؤمر أحد برويته .

فإن قلت : ما صورة تبديل السيئات بالحسنات ؛ هل تصير نفس المعصية التي وقعت حسنة في صحيفة العبد أم يصير العبد يطيع الله تعالى بعد أن كان يعصيه ؟

فالجواب : كما قاله بعض أهل الكشف : إن صورة التبديل أن يبدل اسم السيئة في الصحيفة ، ويكتب مكانها حسنة تشاكلها فإن كانت المعصية كبيرة كتب مكانها حسنة كبيرة أو كانت صغيرة كتب موضعها حسنة صغيرة ، وهذا الأمر أعظم عنايات الله تعالى بالعبد إن صح لأنه يعطى النفس حظها في الشهوات الدنيوية ، ثم يكتب الله تعالى له في صحيفته أعمالاً صالحة لم يعمل عينها فعلم أن الله تعالى إذا بدل سيئات العارف حسنات رأى ذلك من أكبر النعم عليه .

فإن قيل : فهل يصح أن يعصى أحد من الخواص ربّه على الكشف والشهود إذا رأى في اللوح المحفوظ ما قدره الله عليه ؟

فالجواب : لا يصح ذلك لعارف أبداً لأن المخصوص بما كشف بقلبه في حضرة الإحسان على الدوام ولو قدر أنه عصى الله تعالى على الكشف لا يشهد الحق تعالى إلا غير راض عنه في ذلك الفعل .

فإن قيل : قد تقدم قول أبي يزيد حين سئل أعصى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فجوز وقوع العارف في سائر المعاصي .

فالجواب : وهو كذلك فجائز في حق الولي أن يكفر بعد إيمان فضلاً عن المعاصي الإسلامية كما وقع لإبليس ؛ فإنه عصى بعد معرفته بالله ﷻ وإنما جوز أبو يزيد ذلك وعدمه أدباً مع الله تعالى أن يحكم عليه بشيء معين كما مرّ أوائل المبحث أي إن كان الله تعالى قدر على العارف المعصية فلا بد من وقوعه فيها لكن مع الحجاب بتأويل أو تزوين أو غفلة أو سهو ، كما أشار إليه حديث « إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم » ... الحديث ، يعنى العقول الذائكة أنها بين يدي الله ﷻ حال عصيانها لا عقول التكليف فإياك والغلط ، والله تعالى أعلم .

فإن قلت : قد قال الحق (جَلَّ وَعَلَا) : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] وآدم عليه السلام من عبيد الاختصاص بيقين ، فكيف كان إبليس واسطة في أكل آدم عليه السلام من الشجرة .

فالجواب : إن إبليس لم يأتِ آدم عليه السلام من باب المعصية ، وإنما دلّاه بغرور

من ذلك حلفه لآدم عليه السلام بالله تعالى أنه له من الناصحين ، ومنها : أنه قال له : إنما نهاك الله تعالى عن قرب الشجرة لا عن أكل ثمرها ، ومنها : ما هو مشهور في الأجوبة عن آدم عليه السلام فما أتاه من صورة ما نهى عنه وإنما أتاه من صورة ما لم ينه عنه الذي هو الأكل...

وايضاح ذلك أن إبليس إذا أراد إغواء عبد ورأى وجه العصمة أو الحفظ محيطاً به تجسد له في صورة إنسان مثله ، فيتخيل ذلك الولي مثلاً أنه إنسان لا شيطان ، ويأتيه بالإغواء من قبل إذنه فيدخل عليه فيما حجر عليه تأويلاً أدناه أن يقول له : إن الله غفور رحيم ، وهل رحمته إلا للمذنبين ، وقال نبيكم : « شفاعة لأهل الكبائر من أمي » فإذا صغى إليه يقول له : افعل فإن مثلك لا يضره الذنب إلا إذا كان دليله لا يحتمل التأويل ، وقد احتمل دليل هذه المعصية التأويل ، وذلك أن إبليس يعلم أن الإنسان العاقل لا يقدم على معصية الله ابتداءً دون وسوسته بالتأويل والتزيين ، فإذا أعطاه إبليس هذا الأصل صار العبد من أهل الاجتهاد في وقوعه في الذنب أو تركه فإن أخطأ فله أجر فلم يتم للشيطان مراده من ذلك العبد المحفوظ ما دام العبد ذاكراً قول إبليس فإن نسي ما قاله إبليس وقع ضرورة كما وقع لآدم عليه السلام .

قال الشيخ محيي الدين : وإنما أكل آدم وحواء من الشجرة لأن قلوب الأصفياء صافية لا تعتقد أن أحداً يكذب عليهم ، ولكن من عناية الله تعالى لآدم أن تلك الأكلة أعقبته الخلد في جنته وملكا لا يبلى على رغم أنف إبليس لكن من غير ما قصده هو لآدم ، إنما كان قصده له أن يقع في الذنب ولا يتوب منه فتاب الله تعالى على آدم ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يكون إبليس قصد بقوله لآدم عليه السلام هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى الخير الذي آل أمر آدم عليه السلام إليه ؛ فإن إبليس لم يعين وقتاً ؟

فالجواب : لا يصح من إبليس قصد ذلك أبداً لأنه ليس له خيراً إلى آدم وذريته البتة ، وإنما الله تعالى يرد وسوسته خائبة بحسن العاقبة لوليه مثلاً فيجتبيه ويصطفيه ضد ما قصد إبليس ، وكان الشيخ أبو العباس العريني شيخ الشيخ محيي الدين يقول : لم يعص آدم ربه معاذ الله ، وإنما عصى من كان في ظهره من ذريته الذين هم أهل الشقاء لأن ظهره كان كالسفينة لسائر أولاده .

وكان الشيخ أبو مدين التلمساني يقول : لو كنت مكان آدم لأكلت الشجرة كلها ، وفي رواية أخرى : لو علم آدم حين أكله من الشجرة ما يؤول أمره إليه من الخير لأكل الشجرة كلها ١٠ هـ

وقد بسط الشيخ الكلام على حديث « فجدد آدم فجددت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته » في الباب الخامس وثلاثمائة فراجعه ترى العجب في غرائب تلك العلوم ، وقد سنح لي أن أضرب لك مثلاً تعلم به يقيناً تنزيه آدم عليه السلام من المعصية المحضة كما يقع فيها غيره ، وتقوم ببعض واجب حق أبيك (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) فأقول وبالله التوفيق : اعلم أن الله تعالى لما قضى في سابق علمه بالسعادة لقوم ولم يبدل ذلك القول لديه فلا بد من فاتح يفتح القبضتين فكان إبليس فاتحاً لقبضة الشقاوة وآدم عليه السلام فاتحاً لقبضة السعادة فإبليس شقي وآدم عليه السلام سعيد هو وذريته الذين اقتفوا آثاره في التوبة والاعتراف فإن آدم مع علمه بأن ما

وقع فيه كان بقضاء وقدر اعترف بذنبه ، وقال : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغَفُّرٌ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] وأضاف الذنب إلى نفسه ليعلم بنيه كيف يخرجون إذا وقعوا في معصية عن الإثم ولا يصرون على المعاصي من غير توبة ولا اعتراف كما وقع فيها إبليس وجنوده من الإنس والجن فكان حكم آدم عليه السلام فيما وقع له مع الحق (جل وعلا) حكم عبد قال الحق تعالى له فيما بينه وبينه : إني أريد أن أظهر في هذا الوجود ما كان مكنوناً في علمي وبحكم أسمائي في أهل حضراتها من السعداء والأشقياء وتظهر حجتى على عبادى قبل أن أخرجهم من جوارى فإن علمي سبق بذلك وأنا كريم ، ومن شأن الكريم أن لا يخرج أحداً من جواره إلا بحجة ظاهرة تقام عليه بين المحجوبين عن سماع ما قلته لك من سري ، فإذا قلت لك : لا تقرب هذه الشجرة ، فاعلم أنني أذنت لك بالقرب منها فاقرب لأقيم عليك الحجة وأخرجك إلى دار خلافتك وترقيك بالأعمال ؛ فإن هذه الدار التي أنت فيها لا تكليف فيها ولا ترقى لأحد بأعماله كما هي أعمال أهل الجنة التي يؤول أمر المؤمنين إليها بعد يوم القيامة سواء فلا يسع العبد صاحب هذا السر إلا أن يبادر إلى ما أذن له فيه سيده سراً من وراء المحجوبين ولم يكن ذلك معصية إلا عند المحجوبين عن سماع ذلك السر الذي أسره الله لآدم عليه السلام ، وأما الحاضرون السامعون ذلك فليس ذلك بمعصية عندهم فإن الإذن من الحق في فعل شيء والأمر به واحد في تلك الحضرة كما صرح به الشيخ في الباب الثالث والسبعين في الجواب الثامن والثلاثين من أسئلة الحكيم الترمذي ، وإنما فرق بينهما في لسان ظاهر الشرع فقط ؛ فإن الأمر غير الإرادة في أحكام الشريعة ، إذ الأمر بخلاف الإرادة اكفى الحق تعالى فيها بإلجاء العبد في

الباطن إلى وقوع ذلك الفعل من غير أن يأمره بذلك ؛ إن الله لا يأمر بالفحشاء فافهم .

وكان الشيخ أبو مدين يقول : قول بعض العارفين ما فعلت الشيء الفلاني إلا بإذن من الله تعالى مراده بالإذن هنا الإرادة الأزلية . هـ فعلم أن في نداء الحق تعالى على آدم بالمعصية والغواية نفعا عظيما لذريته المحبوبين الذين يتعدون حدود الله فيتأسون بأبيهم في الندم والاستغفار والاعتراف ، فلم تكن تلك المعصية مقصودة لآدم بالأصالة كما هي ذنوب الغاوين من ذريته ، وإنما بكى آدم عليه السلام مع إذن الحق تعالى في أكله من الشجرة سرًا على ما مر في كلام أبي مدين تشريعًا لذريته ، فكان بكاؤه صورياً .

فإن قلت : فلم لم يفتح آدم عليه السلام قبضة السعادة بالطاعة الصرف دون وقوعه في المعصية ثم توبته منها ؟

فالجواب : إنما كان الأمر بعد وقوع المعصية ليظهر آدم بذلك سعة فضل الله ورحمته وحلمه على عباده الذين سبق في علمه أنهم يقعون في معاصيه تعالى ولو أنه فتح قبضة السعادة بالطاعة المحضة لتعطلت حضرات كثير من الأسماء الإلهية المتعلقة بالعالم المخالف إذ الطائع لا يحتاج إلى مغفرة ولا رحمة ولا حلم لعدم من يغفر له أو يرحم أو يحلم عليه ، ويؤيد ذلك حديث : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » فاعلم ذلك .

وأما الجواب عن نوح عليه السلام : في قوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] فإنما دعا عليهم بذلك رحمة بهم خوف أن يشتد

عليهم غضب الله تعالى أكثر مما كانوا فيه ، وقد أمرنا نبينا محمد ﷺ أن يقول أحدنا : إذا خاف من وقوعه في فتنة اللهم توفيني إذا كانت الوفاة خيراً لي فلم يكن دعاؤه على قومه من غضب نفسي حاشا الأنبياء من ذلك .

وقال الشيخ محيي الدين : ليست دعوة نوح التي يعتذر بها يوم القيامة قوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ [نوح : ٢٦] إنما هي قوله ﴿ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَقَارًا ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ [نوح : ٢٧] لكونه تحكم على الله فيما لا يعرفه ولم يزل الحق يربي أنبياءه بأدب بعد أدب قال ﷺ : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : ٤٨] أدبني ربي فأحسن تأديبي ١ هـ .

وأما الجواب عن السيد أيوب عليه السلام : في جمعه الذهب في ثوبه لما أمطر الله تعالى عليه رجلاً من جراد من ذهب ، وقال له ربه : ألم أكن أغنيتك عن هذا ، فقال : بلى يارب ، ولكن لا أغني لى عن خيرك وبركك ؟

فالجواب : أن أكابر الأولياء فضلاً عن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا ينقص كمالهم أخذ الدنيا وإمساکها ، فإن كان أيوب عليه السلام جمع الذهب لما هو عليه من ظاهر الحال فهو صحيح مع أنه قانع بلا شك لأن القناعة عند أهل الله تعالى ليست هي الاكتفاء بالموجود من غير طلب مزيد ، وإن كان فعل ذلك ليقّدي به قومه فما فعل إلا ما هو أولى بالقربة إلى الله تعالى من تركه لاسيما وأيوب عليه السلام ممن هدى الله تعالى ومن أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقّدي بهداهم وقال تعالى : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة فقد رجعت القناعة بهذا التقرير إلى بابها في لسان العرب وهي المسألة فإن القانع هو السائل لكن من الله لا

من غيره قال تعالى في الظالمين يوم القيامة : مقتعي رؤوسهم ، أي رافعين رؤوسهم ، إلى الله تعالى يسألونه العفو والمغفرة عن جرائمهم ، فعلم أن من سأل غير ربه فهو ظالم إلا أن يرى أن ذلك الغير باب من أبواب الله تعالى من غير وقوف معه ، فإن لم يكن كذلك خيف عليه الحرمان والخسران ، ولا يخفى أن السائل موصوف بالركون إلى من سألته والله تعالى يقول : ولا تركوا إلى الذين ظلموا ، ومن ركن إلى نفسه أو إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم لقوله تعالى : إنه أي الإنسان كان ظلوماً جهولاً وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والتسعين : اعلم أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وكل الأولياء ما أمسكوا الدنيا إلا باطلاع عرفاني أنتج لهم ما عشقهم في الإمساك من نفع نفس بالأقوات التي قدر الله تعالى وصولها لأصحابها في أوقات مخصوصة فما أمسكوا الدنيا عن بخل ولا ضعف يقين حاشاهم من ذلك .

قال : وانظر إلى أيوب عليه السلام كيف أعطته المعرفة المذكورة أنه صار يحثو في ثوبه من الذهب لما أمطر عليه ، وهو يقول لا غنى لي عن بركتك . هـ

وأما الجواب عن يونس عليه السلام : فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] أن يونس عليه السلام ظن أن الله تعالى لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمته من باب قوله تعالى ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : ٧] أي ضيق عليه ، وإنما آخذه الله تعالى لكونه قصد ذلك الاتساع الإلهي على نفسه فقط ، ولم ينظر ذلك في حق غيره من أمته فلما ظن أن رحمة الله تعالى لا تنالهم أثر غضبه ظلمة في ظاهره لعلو منصبه وصفاء قلبه فأسكن في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله تعالى لينبهه الله تعالى على حالته حين كان جنيئاً في بطن أمه ، مَنْ كان يدبره فيه ؟ وهل كان في ذلك

الموطن يتصور منه أن يغضب أو يغضب بل كان في كنف الله ﷻ لا يعرف سوى ربه فردّه تعالى إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليمًا له بالفعل لا بالقول ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، أي سبحانك يا رب تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء ، وهذا كالاغترار عن أمته ، وقوله كنت من الظالمين ، أي أثر غضبي رجع عليّ ما أنت ظلمتني لأن علمك ما تعلق بي إلا على هذا الحال ثم لما زالت ظلمة المغاضبة ظلمة تليق بمقام الأنبياء وانتشر النور اللائق بكمال النبوة في قلبه استجاب له ربه ، فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولودًا على الفطرة السليمة فلم يولد أحد من بني آدم ولادتين سوى يونس (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) فخرج ضعيفًا كالطفل كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ ﴾ [الصفّات : ١٤٥] ورباه تعالى بالقيطين ، وذلك لأن ورقه ناعم ولا ينزل عليه ذباب إذ الطفل لضعفه لا يستطيع أن يرد الذباب عن نفسه ، فغطاه الله تعالى بهذه الشجرة التي من خاصتها أن لا يقربها ذباب مع نعمة ورقها ، فإنه مثل القطن في النعومة بخلاف ورق الأشجار كلها فإن فيه الحشونة ، ذكره الشيخ في الباب الثالث والثلاثين من (الفقوحات) .

وأما الجواب عن السيد موسى (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : في قوله ﴿ فَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء : ٢١] كيف خاف النبي ﷺ وهو كامل مع أن الواحد من الأولياء لا يخاف أحد إلا الله تعالى ؟

فالجواب : مقام الخوف أولى من وجوه منها أن الكامل يرى من نفسه الضعف بخلاف صاحب الحال من الأولياء ، ومنها أنه يجب على الكامل الفرار من كل شيء يؤدي بدنه أو يلحقه بالعدم وإن خالف ذلك إثم ، ومنها أن في

الخوف عدم تعطيل الأسباب فكان من كمال موسى فراره ، ويحتمل أن خوفه منهم إنما هو خوف من الله تعالى بالأصالة أن يسلطهم عليه فرجع خوفه منهم إلى خوفه من الله تعالى وذلك محمود ، والله أعلم .

وأما الجواب عن السيد سليمان (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : في قوله تعالى ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (ص : ٣٢) فهو أن تعلم يا أخى أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا توصف بفعل سفه ولا إتلاف مال لكمالهم ، وإنما المراد أنه لما أحب الخير الذي هو المال عن ذكر ربه لا عن حكم الطبع طفق يمسح بيده على أعراف الخيل وسوقها فرحاً وإعجاباً بخير ربه ولعلمه (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) بأن الله تعالى يحب من عباده حب الخير ، وذلك الحب للخير إما أن يراد به حب الله إياه أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب ومعلوم أن الخير لا يحب إلا الأخيار ؛ فإنهم محل وجود عينه ؛ فلذلك قال سليمان (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (ص : ٣٢) أي أنا في الخير من حيث المحبة كالخير في حبه ، ولهذا لما توارت بالحجاب يعني الصافنات الجياد اشتاق إليها ، فقال : ردوها عليّ لأنه فقد الحل الذي أوجب له هذه الصفة المملوذة ؛ فإنها كانت محلاً له قال الشيخ في الباب الرابع والعشرين ومائة من (الفتوحات) : وليس للمفسرين الذين جعلوا التواري للشمس دليل لأن الشمس ليس لها هنا ذكر ولا الصلاة التي يزعمون وسياق الآية لا يدل على ما قالوه في ذلك بوجه ظاهر البتة ، وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ (ص : ٣٤) فالمراد بتلك الفتنة إنما هو الاختبار إذ كان متعلقة الخيل ولا بد فيكون اختباره إذ رآها : هل يحبها عن ذكر ربه لها أو يحبها لعينها فأخبر عليه السلام

أنه أحبها عن ذكر ربه إياها لا لحسنها وكما لها وحاجته إليها ؛ فإنها جزء من الملك الذي طلب أن لا يكون لأحد من بعده فأجابه الحق تعالى إلى ما سأل في المجموع ورفع الحرج عنه ، وقال له : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠﴾ [ص : ٣٩ - ٤٠] أي ما ينقصه هذا الملك شيئاً من ملك الآخرة كما يقع لغيره من المتعمين في الدنيا ، فإن كل شيء تنعموا به في الدنيا نقص من نعيمهم في الآخرة ، كما ورد قال : ومن هنا يعلم أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لم يكن شيء يشغلهم عن الله تعالى من نعيم الآخرة فضلاً عن الدنيا ، ولذلك سألوا التوسع في الدنيا ، ومحال أن يسألوا من ربهم ما يحببهم عنه ، أو يجيبهم الحق تعالى إلى ما يحببهم عنه إكراماً لهم ، وقد ذكر الشيخ في باب الوصايا من (الفوتوح) : أن الأكابر ما سألوا الله تعالى التوسع في الدنيا إلا لغرض صحيح ، وذلك لأنهم لما أحكموا الزهد في الدنيا والقناعة منها بالقليل أمنوا على نفوسهم من أن يشتغلوا عند الله بشيء ، فسألوا الله التوسع في الدنيا ليوسعوا بها على أنفسهم وعلى من يلوذ بهم إعطاء لنفوسهم ومعارفهم حقهم وليتذذوا بخطاب الله ﷻ لهم بقوله : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المزمل : ٢٠] فإنه تعالى ما خاطب بذلك إلا أهل الجدة والسعة فلاجل لذة توجه خطاب الحق تعالى لهم في ذلك سارعوا إلى تحصيل مرتبة الغنى بالتجارات والمكاسب الشرعية لعلمهم بأن من لا مال له محروم من لذة هذا الخطاب فقد بان لك أن سليمان عليه السلام لم يقدح في كماله سؤاله الدنيا أن تكون له بأسرها لفقد العلة التي كرهت الدنيا من أجلها .

وقد بلغنا أن نملة طلبت من سليمان الأمان فأعطاه ، فقالت : ما ملكك

الذي أعطاه الحق تعالى بسؤالك ؟ فقال : خاتمي ، فقالت : أف لملك يحويه خاتم ، ثم قالت له : يا سليمان ، إذا كانت الأمور التي يعطيها الحق تعالى لعباده لا تخرج عن ملكه تعالى ، فما فائدة طلبك أن يعطيك ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدك ا. هـ .

قلت : وما ذكره الشيخ في هذه الآية تفسير غريب واضح ، وعليه فلا يصح استدلال الشبلي به على تحريق ثيابه بالنار حين شغله عن ربه ﷻ وقال : إن سليمان عليه السلام قطع سوق الخيل وأعناقها لما شغله عن الصلاة .

وأما قول بعض العلماء أن الضمير في (تورات) للشمس فلا يناسب قوله (ردوها عليّ) إذ الشمس ليس ردها في يد قومه حتى يردوها عليه ، ومع ذلك فإن صحَّ دليل في رد الشمس على سليمان بإظهار الضمير الذي في (تورات) وردها للشمس دون الخيل اتبعناه ، والله أعلم .

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمته الله يقول : ثم مقام يقتضي طلب العبد أن يوسع الله عليه الدنيا ليزداد بذلك فقراً إلى الله تعالى ، وإلى نعمه ، وكيف يعاب على من سأل ربه ما هو أقل من جناح بعوضة ا. هـ .

وأما الجواب عن خطيئة داود (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) التي استغفر منها ﴿ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ فكانت نظرة فجأة بغير تقدم نية صالحة ، ولذلك قال عليه السلام : « كانت خطيئة أخي داود النظر » وذلك أنه رفع رأسه من الأرض بغير نية تناسب مقامه ، فأخذه الله بذلك ، ولذلك ورد أنه لم يرفع بصره إلى ناحية السماء بعد ذلك إلى أن مات حياءً من ذلك الرفع السابق مع الغفلة ، فعين الذنب هو رفع البصر ولو إلى مباح بغير نية فافهم .

فعلهم أن مؤاخذه الأكابر في الحركات والسكنات مع الغفلة لا تختص بالنظر ولا غيره ، فلو قدر أنه حرّك أصابعه مع الغفلة عن شهود الحق بذلك لآخذه الله به لوجوب الحضور عليهم مع الله تعالى على الدوام .

وأما ما ذكره من أن خطيئة داود كانت هي النظر إلى امرأة أوربا فلم يصح لنا ذلك في حديث ، والله أعلم ، وقد بسط ذلك في مبحث الجواب عن آدم (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) فراجع .

وأما الجواب عن السيد يوسف (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءَ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] الآية فقد ذكر الشيخ في الباب السابع والستين وثلاثمائة من (الفتوحات) أن روحه اجتمعت بروح يوسف (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) في بعض الإسراء الروحية ، فقال له : يا نبي الله ، ما معنى الاشتراك في إخبار الله تعالى عنك بقوله ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءَ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] فإنه تعالى لم يعين في ماذا ؟ ولا يخفى أن اللسان يدل على أحدية المعنى فقال يوسف (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : نعم ، ولذلك قلت للملك على لسان رسوله أن يسأل النسوة فما ذكرت المرأة إلا أنها راودتني عن نفسي ، وما ذكرت أنني راودتها ، فافهم ما قلته لك ؛ فإن به يزول ما كان يتوهمه بعض الناس لما لم يعين الله تعالى أمر همي وهمها ، فقلت له : يا نبي الله ، اللسان يؤذن بالاشتراك ، فقال : نعم صدقت لكن في اللفظ دون المعنى ، فإنها همت بي لتقهرني على ما كانت أرادت مني ، وهمت أنا بها لأقهرها بالدفع عن ذلك فلاشتراك في طلب القهر مني ومنها فكأنه تعالى يقول : ولقد همت به يعني في عين ما هم بها ، وليس إلا القهر فيما يزيد كل واحد من صاحبه ، دليل ذلك قول المرأة : ﴿ أَتَنْتَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ

﴿نفسه﴾ [يوسف : ٥١] ، وما جاء في قصتي قط أني راودتها عن نفسها فأراني الله تعالى البرهان غير إرادتي القهر في دفعها عني أولاً بالقول اللين كما قال تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : ٤٤] أي لا تعسف عليها يا يوسف وسسها ؛ فإنها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال .

قال الشيخ محيي الدين : فقلت له : أفدتني أفادك الله تعالى ، فاعلم ذلك .

وأما الجواب عن أبينا إبراهيم الخليل (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) فذكر الشيخ في الباب السابع والستين وثلاثمائة أن روحه اجتمعت بروح الخليل (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) قال : فقلت له : يأبت ، لم قلت ﴿ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] مع أنك من المؤمنين بذلك بلا شك ، فقال : صحيح ، ولكن للإحياء وجوه كثيرة كما كان إيجاد الخلق ؛ فمنهم من أوجده الله تعالى عن كلمة كن ، ومنهم من أوجده بيديه ، ومنهم من أوجده ابتداء ، ومنهم من أوجده عن خلق آخر ، فطلبت العلم بتعيين وجه من هذه الوجوه ، فإذا أعلمني به اطمأن قلبي .

قلت : وقد بسط الشيخ الكلام على ذلك في الباب الخامس والعشرين ومائتين ، والله أعلم .

ونرجع : إلى المعنى الذي نحن فيه قال الشيخ : فقلت له يأبت ، لم قلت : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] قال : لأنهم كانوا قائلين بكبرياء الحق تعالى على آلهتهم التي اتخذوها ، فقلت له : فماذا أردت بإشارتك بقولك هذا ، قال لي : أنت تعلم المراد بها ، فقلت : إني أعلم إنها إشارة ابتداء وخبره محذوف يدل عليه قولك : بل فعله كبيرهم فاسألوهم إقامة للحجة عليهم ، فقال

(عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : « ما زدت على ما كان الأمر عليه » فقلت له : فما كانت خطيئتك في قولك : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٨٢) ﴿ [الشعراء : ٨٢] ، فقال : هي نسبة المرض إلى نفسي في قولي : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠) ﴿ [الشعراء : ٨٠] مع أنه في الحقيقة لم يمرضني إلا الله تعالى فهذا كان خطيئتي فكان في إضافة المرض إلى نفسي ثم طلبي المغفرة من تلك الإضافة أذبان ، فقلت له : فلم قال تعالى في حقه : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠] فخص صلاحك بالآخرة ، وأطلق الصلاح لغيرك من الأنبياء في الدنيا والآخرة ، فقال : لأن الصالح من شرطه أن لا يضيف إلى نفسه شيئاً إلا بإضافة الله تعالى ، وقد أضفت إلى نفسي وغيرها ما ليس لها بغير إذن خاص من الله تعالى بقولي : (وإذا مرضت) وقولي (إني سقيم) وقولي (بل فعله كبيرهم هذا) .

فقلت له : يا أبت فما قولك في الأنوار الثلاثة ؛ فإنك معصوم عن اعتقادك فيها الألوهية في حين من الأحيان ، فقال : إنما قلت ذلك إقامة للحجة على قومي ، ألا ترى إلى ما قال الحق تعالى في القرآن : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣] وما كان اعتقاد قومي في الإله إلا أنه نمرود ولم تكن تلك الأنوار ألهمهم ولا كان نمرود إلهاً لهم ، وإنما كانوا يرجعون في عبادتهم لما نخّوه آلهة لا إليه ، ولذلك لما قلت : (ربي الذي يحيي ويميت) لم يتجرأ نمرود أن ينسب الإحياء والأمانة إلى ألهمهم التي وضعها لهم لئلا يفتضح ، فقال : (أنا أحيى وأميت) فعدل إلى نفسه تنزيهاً لألهمهم عندهم حتى لا يترزّل الحاضرون ، فقلت له : فلم عدلت إلى الأقرب في الحجة ؟ فقال : لأنني علمت قصور أفهامهم عما

جئت به لو فصلته وطال المجلس ، فعدلت إلى الأقرب في أفهامهم بذكر إتيان الله تعالى بالشمس من المشرق وطلبت أن يأتي بها من المغرب ، فبهت الذي كفر تعجيزاً له من الله تعالى .

ولنختتم الأجوبة بالجواب عن نبينا محمد ﷺ (فنقول) وبالله التوفيق أعلم أن الأجوبة عن نبينا محمد ﷺ من علماء أمته لا تحصى ، ولكن نذكر لك منها طرفاً صالحاً فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والتسعين وثلاثمائة : إن محمداً ﷺ لم يزل معصوماً عن كل ما ينقص مقامه إلاكمل قبل النبوة وبعدها ، كما روي أنه (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) قبل رسالته كان يرعى الغنم بالبادية فكان يهتم أن يدخل إلى مكة فيصيب فيها ما يصيب الشبان من اللعب فإذا دخل مكة لذلك أرسل الله عليه النوم ، فيفوته فعل ما دخل لأجله ، فيستعجل الرجوع إلى غنمه ، فكان في ذلك عصمته ﷺ من حيث لا يشعر وفي المثل السائر : من العصمة أن لا تجد ، ويسمو هذا المقام علم الحاصل في عين الفائت كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] فكان في ذلك الفائت سعادة العبد وفضل على الحاصل ١٠ هـ ، وقد تقدم أوائل المبحث معنى قوله ﷺ : « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة » وإن المراد بذلك أنه كان دائم الترقى فكان يستغفر الله ﷻ عن كل مقام ترقى عنه ؛ فإنه ثم مقام رفيع ومقام أرفع ، وفي باب الوصايا للشيخ محيي الدين إذا كان الحق تعالى يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فينبغي للعبد أن لا يتحدث في مناجاته للحق تعالى بما علمه له قبل ذلك ؛ فإنه تضييع للوقت ،

وإنما ينبغي له أن يطلب دائماً أمراً جديداً ١٠ هـ

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الجواب الخامس والخمسين من الباب الثالث والسبعين من (الفتوحات) أن المراد بهذا الخطاب وجميع العتاب الذي عاتب الله تعالى به نبيه ﷺ غيره من الأمة نحو : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ١] ﴿ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] فكان من قوته ﷺ أنه تحمل عن أمته صولة الخطاب بالعتاب والتوبيخ ، فالخطاب له والمراد به غيره ، وهذا أحسن الأجوبة ، قال : وأما مغفرته تعالى لبقية النبيين (عليهم الصلاة والسلام) فإنما هي لكون الحق تعالى ستر عنهم في هذه الدار العلم بأن جميع مقاماتهم لرسول الله ﷺ بحكم الأصالة وإنهم نوابه ﷺ كما ينكشف لهم ذلك كله في الدار الآخرة ، وأطال في ذلك .

ثم قال : فعلم من قولنا أن المخاطب بتلك المعاتبات كلها رسول الله ﷺ والمراد بذلك غيره أن الحق تعالى من شأنه أن يؤدب الكبير بالصغير وكما أدب تعالى الأمة بتأديب رسولها لتبليغ باستعمال ذلك الأدب إلى نيل مأمولها فخطاب الرسول .، والمراد من أرسل إليه بالحث عليه ١٠ هـ

وقال : في الباب الثامن والتسعين ومائة في قوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] . . . الآية هو من باب قولهم : إياك أعني واسمعي يا جارة ،

كما يشهد لذلك قرائن الأحوال قال : والحكمة في ذلك مقابلة لإعراض الكفار عن استماع ما جاء به الرسول ﷺ فلذلك أعرض الحق عنهم في الخطاب مقابلة لإعراض بإعراض مع كونهم هم المراد بذلك الخطاب فأسمعهم في غيرهم عقوبة لهم واستهانة بأمرهم .

وقال الشيخ : في الباب السابع وأربعين ومائتين : اعلم أنه لا يشترط في استغفار الأكابر أن يكون من ذنب وقع ، وإنما استغفارهم من خوف أن يبدو منهم ما كان ينبغي ستره من الأحوال التي لم يؤمروا بذكرها لقومهم ، ولهذا ما نقل من نبي قط أنه ندم على ما قاله مما أوحى به إليه ولا سمع منه كلام عادي في حال الوحي حتى يفرغ من تنزله عليه فإذا انقصر عنه فحينئذ يخبر بما وقع قال وأما ما كان عن نظر من غير وارد وحي فقد يمكن أن يندم على ما جرى منه ، كما وقع له في أسارى بدر ١ هـ .

فإن قلت : فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وما الذي أوقع رسول الله ﷺ فيما عاتبه الله عليه من خشية الناس ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب السابع والثلاثين وخمسمائة من (الفتوحات) أن سبب وقوعه ﷺ في خشيته من الناس قوله في حق يوسف (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : لو كنت مكانه لأجبت الداعي - يعني داعي الملك لما دعاه إلى الخروج من السجن ، فلم يخرج حتى قال له : ارجع إلى ربك - يعني العزيز الذي حبسه - فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ وذلك ليثبت

عند العزيز براءته ، فلا تصح له المنة على يوسف في إخراجه من السجن بل المنة لله وحده ، فقصده يوسف براءة ساحته إذ لو بقي الاحتمال لقدح في عدالته وهو رسول من الله ﷻ ، فلا بد لأمره في طريق انقيادهم له من ثبوت عدالته عندهم فلذلك خشى ﷺ من الناس أن يعيبوا عليه تزويجه بزوجة من تبناه حتى لا يردوا دعوة الحق عليه ، فعلم أن الله تعالى ما ابتلى نبيه ﷺ بتزويجه زوجة من تبناه إلا ليدوق بلاء التهمة ، ويتخلق بالرحمة التامة على كل من اتهم فإن تزوج الرجل زوجة من تبناه مما كان يقدر في كماله ﷺ عند جهال العرب وهو رسول وأي رسول ، ثم إنه تعالى لما أذاقه ألم الحرج في مقامه داواه بإبانته عن العلة في ذلك بقوله ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ورفع الحرج في مثل ذلك عن المؤمنين فأذاق الحق تعالى رسوله ﷺ ما أذاق يوسف حين لم يجب الداعي ، وطلب أن تكون البراءة في غيبته لكونها أكثر تنزيهاً له لأنه لو حضر ربما قيل : ما زكاه إلا في وجهه حياء منه ، ومن كمال الرجل أن يقف مع ما يمسك عليه المروءة العرفية في كل ما لم يؤمر بفعله حتى يأتيه أمر الله فهناك يكون بحسب ما يؤمر به ١ هـ

قلت : ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﷺ لأجبت الداعي الثناء على يوسف بالقوة في عدم خروجه من السجن فأظهر ﷺ ضعف حاله عن حال يوسف كما قال : « نحن أولى بالشك من إبراهيم » فإن يوسف اجتمع عليه حالان حال السجن وحال كونه مفترى عليه ، وكل رسول يطلب أن يقرر في نفوس أمته ما يقبلون به دعاء ربه في كل ما يدعوهم إليه فكان رسول الله ﷺ قال : « لو كنت مكان يوسف لسارعت إلى الخروج » طلباً للبراءة بمجدالي عن نفسي لتثبت براءتي

عند من أرسلت إليهم ، ويحتمل غير ذلك ، والله أعلم .

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ ﴾ [التوبة : ٤٣] هل هو توبيخ كما فهمه بعضهم أو سؤال عن العلة مثل قوله تعالى لعيسى (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُتَى الْكُهَيْنِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة : إن ذلك سؤال عن العلة لا سؤال توبيخ لأن العفو قد تقدم ذلك ، وقوله : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ ﴾ [التوبة : ٤٣] إنما هو استفهام مثل قوله تعالى لعيسى ما تقدم كأنه تعالى يقول : أفعلت يا محمد ذلك حتى يتبين لك الذين صدقوا ، فإما أن يقول عند ذلك نعم أو لا ؛ فإن العفو والتوبيخ لا يجتمعان لاسيما مع تقدم العفو في الذكر كما تقدم فإن من وَبَّحَ فما عفا مطلقا ؛ لأن التوبيخ مؤاخذة ، وهو تعالى قد عفا ، قال : ولما كان هذا اللفظ قد يفهم منه في اللسان التوبيخ جاء لأجل ذلك بالعفو ابتداء ليتنبه العارف بالله تعالى ومواقع كلامه أنه لم يرد التوبيخ الذي يتوهمه من لا علم عنده بالحقائق . هـ .

وقال في الباب الثامن والثلاثين من (الفتوحات) أيضا في قوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ ﴾ [التوبة : ٤٣] ذكر أهل التفسير أنه تعالى قدم له البشرى قبل العتاب ليطمئن فؤاده ﷺ قال : والذي عندنا نحن من العلم الإلهي أن هذه الآية بشرى خاصة ليس فيها عتاب إنما هو استفهام لمن أنصف وأعطى كلام الله تعالى حقه في الفهم . هـ .

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى في حقه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ﴾ [عبس : ١ - ٢] . . . إلخ النسق هل معناه على ظاهره أم المراد به غير ذلك .

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الرابع وثلاثمائة ليس ذلك العتاب على ظاهره وإنما به نبيه ﷺ على ما ذكره ليعلمه أنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم أكثر حضوراً من الملوك لأن رحمة الله تعالى لا تفارق الفقراء بخلاف الملوك ، وأيضاً ذلك أن الحق تعالى يغار لعبده المنكسر القلب من أجل ربه أشد مما يضار لمن تظاهر بصفة العظمة فإذا حضر عندك ملك مطاع نافذ الأمر زائراً ثم إن فقيراً دخل عليك كذلك زائراً ، فأقبل على الفقير أكثر من الملك إلا أن تخاف سطوته ولا تعرض عن الفقير حتى يفرغ من حاجته التي جاءك لأجلها ، فعلم أن تجلي الحق تعالى بالحضور عند الملك المطاع تجلٍ في غير موطنه اللائق به إذ الكبرياء والعظمة إنما تليق بأهل الجنة في الجنة لعدم التحجير عليهم وزوال التكليف ، وما عاتب الله تعالى نبيه بقوله ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ﴾ [عبس : ١ - ٢] إلا لكون ذلك الأعمى فقيراً ، فغار تعالى لمقام العبودية والفقير أن يستهضم لأجل صفة عز أو قهر ظهرت في غير محلها ، وأطال في ذلك .

وأما معنى : قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ۚ ۝ فَاتَّ لَهُ صَدَقَى ۚ ﴾ [عبس : ٥ - ٦] فذكر الشيخ في الباب التاسع والأربعين وخمسمائة أن معناه العتاب في حال اجتماع الفقراء مع الأغنياء لا مع الانفراد ، فإن من الأدب الإقبال على كل وارد من غني أو فقير ، (وفي الحديث) « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ

وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ [الممتحنة : ٨] .

وهنا نكتة ينبغي لك أخي أن تعرفها ، وهي أن الملك العزيز في قومه ما جاء إليك ولا نزل عليك حتى ترك جبروته وكبريائه خلف ظهره قبل أن يأتيك فما أتاك إلا وهو يرى نفسه دونك فكان جبروتك في نفسك إذا لم تقبل عليه وتتواضع له أعظم من جبروته هو ، فعلى كل حال يلزمك مقابلته بنظير فعله معك ، وأنزله أنت منزلته من نفسك قبل أن يأتيك وأدخل عليه السرور بالإقبال والتبسم تكن حكيم الزمان ؛ فإن الله تعالى ما عاتب نبيه ﷺ في حق الأعمى والأغنياء إلا لكون الفريقين كانا حاضرين ، فبالجموع وقع العتب لا مع الانفراد .

وكان سيدي علي الخوَّاص (رحمه الله تعالى) : يقول إنما أقبل ﷺ على الأغنياء لصفة الغنى التي تظاهروا بها والعارف بالله تعالى ينبغي له الإقبال على كل نعت إلهي من جلال وعظمة وغيرهما ، فإن وقع أن أحداً من العارفين عوتب على إقباله على الأغنياء فليس ذلك من حيث تظاهروهم بالغنى وإنما ذلك لعلة أخرى فعلم أنه لا ينبغي القياس على هذا العتاب وطرده في حق الأغنياء مطلقاً ، فإن ذلك مزلة قدم عن الشريعة ؛ فإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بإكرام كريم كل قوم إذا أتانا كما مر ، فافهم ، واعلم أيضاً أن تعظيم العارف للملوك والأمراء والأغنياء إنما هو من تعظيم الرب (جل وعلا) ، وأما تعظيم الفقراء فإنما ذلك جبراً لقلوبهم لانكسارها ١٠ هـ

وقال في تفسير هذه الآية أيضاً في الباب الثالث والستين ومائة : اعلم أن الغنى صفة ذاتية للحق تعالى ؛ فإن الله هو الغني الحميد أي هو الذي يستحق أن

يشئى عليه بهذه الصفة وكان مشهد رسول الله ﷺ حين عاتبه ربه بقوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس : ١] إلخ ، إنما هو الصفة الإلهية المذكورة ، وهو الغنى المطلق الذي لا يكون لغير الله قطعاً ، فهذا تصدى رسول الله ﷺ لأكابر قريش لظهور رائحة هذه الصفة الإلهية فيهم فإنها تعطي بذاتها الشرف والرفعة في ذلك الوقت الذي تصدى لهم فيه فكان قصده ﷺ بإقباله على الأغنياء إنما هو تعليم أمته أن يتصدوا لكل من اتصف بصفة الغنى من الخلق ثم إذا رسخوا في ذلك المقام أمروا بالترقي إلى شهود عدم تخصيص الصفات الإلهية فإن العالم كله من شعائر الله تعالى ومن صفته ولا يتف شيء منه عن مصاحبة معية الحق تعالى له عدم تحيزه (جل وعلا) فكل كامل يغار على هضم جناب المنكسرة قلوبهم ؛ لأن الحق عندهم كما أخبرنا به الشارع ﷺ وأيضاً فإنه ﷺ مع هذا المشهد كان له حرص عظيم على إسلام قريش فكان يعلم أن أكابرهم إذا مالوا إليه بقلوبهم أطاعوه وأحبوه وأسلموا فأسلم بإسلامهم خلق كثير ؛ قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة : ١٢٨] أي أن عنادكم وعدم إسلامكم يعز عليه لمحبة الخير لكم .

فإن قلت : فكيف أوقع الحق تعالى العتب على رسول الله ﷺ مع هذا المشهد العظيم الذي قدمناه ؟

فالجواب : إنما عاتبه وأعلمنا بذلك تأديباً لنا ؛ فإن الإنسان محل الغفلات ، وهو فقير بالذات ، ولو صار من أكبر ملوك الدنيا فهو فقير ؛ لأن غناه عرضي عرض له من حصول الجاه والمال فما استغنى إلا بغيره بخلاف الحق (جل وعلا) فليست الصفة التي ظهرت في الأغنياء صفة الحق حقيقة حتى يتصدى العبد لها ،

ولذلك قال تعالى في الآية : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [عيس : ٥] بسين الطلب ، وما قال : أما من هو غني ، فكان مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ الإعراض عن الأغنياء والإقبال على الفقراء أولاً ، ثم أمره أن يقبل على كل من ترك غناه وكبريائه وجاء إليه .

قال الشيخ : وأكثر الناس غافلون عن هذا الأدب الثاني فلا يكادون يشهدون له طمعاً ويتخيلون أن إقبال العارفين على أحد الرؤساء والأغنياء إنما ذلك لأجل جاههم وما لهم ، وليس الأمر كما ظنوا .

ثم اعلم : أن أهل الله تعالى إذا خافوا أن أحداً من العوام يتبعهم على تعظيم الأغنياء من غير فهم المعنى الذي قصده وخافوا أن يزدادوا بذلك الفعل رغبة في الدنيا ، فلم إظهار الأنفة على الأغنياء والرؤساء تقدماً لمصلحة المحجوبين ، وتأمل قولهم : شرط الداعي إلى الله ﷻ أن يكون غنياً عن المدعوي لا يحتاج إليهم في شيء يمنون به عليه ، فعرف أنه ينبغي له استجلاب الناس لا تنفيرهم عنه فيحسن إليهم بالمال والإقبال ولا ينبغي له قبول صدقاتهم وإحسانهم لأنه يهون بذل في أعين المدعويين ، ويجب عليه التعفف عما بأيديهم وكف نفسه عنهم إما بمال أو قناعة ، قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل : ١٢٥] .

فأما الحكمة فهو غناه عما بأيدي المدعويين ، وأما الموعظة الحسنة فهو تمهيد به سائلاً للمدعويين حتى إنهم يصيرون يبادرون إلى فعل ما نذبههم إليه من غير توقف لما يعلمون لنفوسهم في ذلك من المصلحة وفي القرآن : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا

الْقَلْبِ لَا تَفْضُؤْا مِنْ حَوْلِكَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقد استقر الأمر على أن تقديم الفقراء على الأغنياء مطلوب في كل ما فيه إكرام ، وإنه لا ينبغي لفقير أن يراعي أحداً من الأكابر بعد ما تبين له الحق ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والسلام .

* * *

خاتمة

لا ينقص من كمال الأنبياء عليهم السلام عدم معرفتهم بتدبير أحوال الدنيا في بعض الأوقات كما أشار إليه قوله عليه السلام في مسألة تلقيح النخل « أتم أعلم بأمر دنياكم » وذلك أنه عليه السلام مرَّ على قوم وهم على رؤوس النخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء » فقالوا : يلقحون النخل ، فقال : « ما أرى ذلك يجدي شيئاً » فسمع بذلك الأنصار فتركوا تلقيح نخلهم تلك السنة ، فقل حمل النخل ، وخرج البلح شيصاً ، فأخبروه بذلك ، فقال : « أتم أعلم بأمر دنياكم » يعني في كل ما لم يوحَّ إليه فيه شيء .

قال الشيخ محيي الدين : وسبب خفاء بعض أحوال الدنيا على الأنبياء والأولياء إنما هو لما غلب على قلوبهم من عظيم مشاهدة جلال الله تعالى فغابوا بذلك عن تدبيرهم للكون ، ولو أن ذلك الجلال والعظمة انحجب عنهم لكانوا أعرف الناس بأمر الدنيا لكن لا يخفى أن حجابهم عن تدبير الكون إنما هو لهم في بعض الأوقات لا كلها ، كما أشار إليه خبر « لي وقت مع الله لا يسعني فيه ربي » .

قال بعض العارفين : وما مات رسول الله عليه السلام حتى تزايد كماله وصار يدبر أمر الدنيا والآخرة لم يكن يشغله مشاهدة جلال الله تعالى عن ذلك .
وقد ذكر الجلال السيوطي رحمته الله أنه عليه السلام كان مكلفاً بالإقبال على الله تعالى وعلى الخلق معاً في آنٍ واحدٍ لا يحجبه الخلق عن الحق .

فإن قلت : فلم أمر رسول الله ﷺ بمشاورة أصحابه مع كونهم دونه بيقين .

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الثامن والتسعين ومائة أن الله تعالى ما أمر نبيه ﷺ بالمشاورة لمن هو دونه إلا ليعلمه تعالى أن له في كل موجود خصوصية لا تكون لغيره فقد يلقي الله تعالى من الوجه الخاص لآحاد الأمة ما لم يلقه إلى أحد من المقربين بدليل قصة الخضر مع موسى (عليهما الصلاة والسلام) والله تعالى أعلم . هـ كلام الإمام الشعراني رحمه الله وجزاه عنا أفضل الجزاء آمين وباتتهاته انتهى ما يسر الله جمعه في هذه الرسالة في هذا الوقت ، ولا يخفى أن الفقير ابن وقته كما تقول الصوفية رحمه الله

(ولله در قائلهم وأجاد) :

خذ من زمانك ما جاد الزمان به فمجنى بعض ما يهوى فقد سعدا

كن ابن وقتك واحذر أن تضيعه فلن يعود زمان فائت أبداً

ولنختم هذه الرسالة بنبذة يسيرة تتعلق بجانب الملائكة الكرام لكونهم شاركوا الأنبياء والرسل في العصمة ، على الجميع من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام .

فنقول : ومن الله أرجو التوفيق والقبول سبحانه :

اعلم أن الملائكة جمع ملك ، وأصله ملاك حذفت همزته بعد نقل حركتها لكثرة الاستعمال ، وقيل أصله مألوك من الألوكة وهي الرسالة فأخترت ثم جمع وقد تحذف الهاء ، فيقال ملائك أفاده الشيخ علي قاري في شرح الشفا .

وفي روح البيان : للشيخ إسماعيل حقي رحمه الله في تفسير قول الله تعالى في

سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ... الآية ما نصه : والملائكة جمع ملك ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة وسموا بها ؛ فإنهم وسائط بين الله وبين الناس فهم رسله ؛ لأن أصل ملك ملاك مقلوب مالك من الألوكة وهي الرسالة ١. هـ

وقال الجمال : في حاشيته على ذي الجلالين : الملائكة جمع ملك الذي مخففه ملك ، والراجع أنه من الملك لا من الألوكة بمعنى الرسالة ١. هـ

وقال في المصباح : ألك بين القوم الكا من باب ضرب وألوكا أيضاً ترسل ، واسم الرسالة مالك بضم اللام ومالكة أيضاً بالهاء ولامها تضم وتفتح ، والملائكة مشتقة من لفظ الألوك ، وقيل من المالك الواحد ملك ، وأصله ملاك ، ووزنه مفعل ، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت فوزنه مغل ؛ فإن الفاء هي الهمزة ، وقد سقطت ، وقيل : مأخوذ من لاك إذا أرسل ، فملك مفعل فنقلت الحركة وسقطت الهمزة وهي عين فوزنه : مغل وقيل فيه غير ذلك ١. هـ كلام المصباح . هذا بعض ما يتعلق بلفظ الملائكة في اللغة .

وأما في الاصطلاح : فالملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة شأنها الطاعات ومسكنها السموات ، هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه (عليهم الصلاة والسلام) وأمناءه على وحيه ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة لعدم دليل على ذلك ١. هـ أفاده الشيخ عبد السلام اللقاني في شرح جوهرة والده .

قال محشية العلامة الأمير : قوله قادرة على التشكل في المبحث التاسع والثلاثين من اليواقيت عن ابن العربي أنهم لا يتشكلون في صور بعضهم فلا يتشكل جبريل بصورة ميكائيل ولا العكس بخلاف أولياء البشر فيمكنهم ذلك قوله شأنها الطاعات في اليواقيت عن الشيخ الأكبر : طاعات الملائكة محتمة عليهم فلا يفرغون من توظيف حتى يمكنهم التطوع ، قال : فمقام « لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل » الحديث من خصوصيات البشر ١. هـ كلام الأمير رحمته الله .

وقال البيضاوي في تفسيره : واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك ، وقالت طائفة من النصارى : هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، وزعم الحكماء : أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة منقسمة إلى قسمين :

قسم : شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما وصفهم في محكم تنزيله ، فقال : يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وهم العلويون والملائكة المقربون .

وقسم : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم المدبرات أمراً ، فمنهم سماوية ، ومنهم أرضية على تفصيل أثبت في كتاب الطوابع ١. هـ

وقال في روح البيان : والملائكة عند أكثر المسلمين أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، والدليل أن الرسل كانوا يرونهم كذلك ، قال :

وروي في شرح كثرتهم أن بني آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والك
عشر الطيور ، والك عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء
الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ،
ثم كل أولئك في مقابلة الكرسي نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق
واحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه
وسمكه إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيها وما بينهما لا يكون لها عنده
قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راکع أو قائم ،
لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ثم كل هؤلاء في مقابلة الذين يحومون حول العرش
كالقطرة في البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام ، والملائكة
الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات
عبادتهم إلا باريهم العليم الخبير على ما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾
[المدر : ٣١] .

وروي أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة في موضع بمنزلة شرف
يمشي بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟
فقال جبريل عليه السلام : لا أدري إلا أنني أراهم محذ خلت ولا أرى واحداً منهم قد
رأته قبل ذلك ثم سألا واحداً منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدري غير أن الله
تعالى يخلق في كل أربعة آلاف سنة كوكبا ، وقد خلق منذ ما خلقتي أربعمائة ألف
كوكب ، فسبحانه من إليه ما أعظم قدرته وما أوسع ملكوته ، وهل خلقت
الملائكة دفعة واحدة ، أو خلقوا تاراً .

اجاب عن ذلك شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيتمي رحمته الله في

فتاويه بما نصه ظاهر السنة أن الملائكة لم يخلقوا دفعة واحدة فقد أخرج عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء ، قال : « يا جابر ، إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك محمد صلى الله عليه وسلم من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا إنس ولا جن فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم ومن الثاني اللوح ومن الثالث العرش ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السموات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » الحديث ، (فتأمله) تجده ظاهراً أو صريحاً في خلق حملة العرش قبل خلق بقية الملائكة .

وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي العالية قال : « أن الله تعالى خلق الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجن يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة » .

وأخرج أبو الشيخ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى في الجنة فينفذ قطراً فيخلق الله من كل قطرة تقطر منه ملكاً » .

واخرج أيضاً عن وهب بن منبه قال : « إن لله نهراً في الهواء يسع الأرضين كلها سبع مرات ، فينزل على ذلك النهر ملك من السماء فيملؤه ويسد ما بين أطرافه ، ثم يغتسل منه ، فإذا خرج منه قطر منه قطرات من نور فيخلق الله من كل قطرة منها ملكاً يسبح الله بجميع تسبيح الخلائق كلهم » .

واخرج أيضاً : عن كعب قال : لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكاً يطير من خشية الله .

واخرج أيضاً : عن العلاء بن هارون قال لجبريل كل يوم انغماس في الكوثر ثم ينتفض فكل قطرة يخلق منها ملك .

(واخرج أيضاً) أنه عليه السلام قال : ليس من خلق الله أكثر من الملائكة ما من شيء ينبت إلا وملك موكل به .

واخرج أيضاً : عن الحاكم قال : بلغني أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من ولد آدم وولد إبليس يحصون كل قطرة وأين تقع ومن يرزق ذلك النبات .

واخرج ابن المنذر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الملائكة عشرة أجزاء : تسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقد وكلوا مجرانة كل شيء وما من السماء موضع إلا فيه ملك ساجد أو ملك راكم ، وإن الحرم بجبال العرش ، وإن البيت المعمور بجبال الكعبة لو سقط لسقط عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

واخرج أبو الشيخ والبيهقي والخطيب وابن عساكر أنه عليه السلام قال : إن لله ملائكة ترعد فرائضهم من مخافته ما منهم ملك تقطر من عينه دمعة إلا وقعت

ملكاً قائماً يسبح وملائكته سجدوا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وملائكة ركوها لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وصفوا لم ينصرفوا عن مصافهم ، ولا ينصرفون عنها إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم ﷻ فينظرون إليه ، وقالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : هؤلاء الأربعة أملاك جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله تعالى من الخلق وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هؤلاء المدبرات أمراً والمقسمات أمراً ، فهذه الأحاديث والآثار كلها ظاهرة أو صريحة في أن الملائكة لم يخلقوا دفعة بل دفعات ١. هـ ما أجاب به ابن حجر رحمه الله .

وقال الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام سيدي محمد ابن عبد القادر الخطيب المكي رحمه الله في كفاية المبتدي ما نصه وهم - يعني الملائكة (عليهم الصلاة والسلام) - أجسام لطيفة نورانية جعل الله لهم قوة على التشكل بأشكال مختلفة جميلة ، والقدرة على الأفعال الشاقة شأنهم الطاعات ، ومسكنهم السموات ، غالباً سفراء بين الله وبين خلقه ، صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى ، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة فلا أب لهم ولا أم ، ولا يتناكحون ، ولا يتوالدون ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ويكون شديداً خوفاً من الله ، عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا تكتب أعمالهم ، ولا يحاسبون ، ولا توزن أعمالهم ، ولا يحشرون مع الإيس والجن ، ويدخلون الجنة ويتعمون فيها بما شاء الله تعالى ، ويجوز عليهم الموت ، بالغون في

الكثرة إلى حد لا يعلمه إلا الله تعالى ، فيجب الإيمان بهم إجمالاً إلا من ورد تعيينه باسمه المخصوص بنوعه ، فيجب الإيمان بهم تفصيلاً ، فالأول عشرة جبريل عليه السلام وميكائيل عليه السلام وإسرافيل عليه السلام وعزرائيل عليه السلام ورضوان عليه السلام ومالك عليه السلام ورقيب وعتيد الكاتبان عليه السلام ومنكر ونكير عليه السلام الموكلان بسؤال القبر ، وفيها خلاف : هل يجب الإيمان بهما تفصيلاً أولاً ؟

والثاني حملة العرش وهم ملائكة أربعة الآن فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى ، والكروبيين وهم ملائكة حافون بالعرش ، طائفيهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة ، والحفظة وخزنة الجنة وخزنة النار وهم ملائكة تسعة عشر أ. هـ

وقال الإمام الرازي : في تفسيره لدى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . . . الآية ، ما نصه : واعلم أنه ليس بعد كلام الله وكلام رسوله كلام في وصف الملائكة أعلى وأجل من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام قال في بعض خطبه : ثم فتق ما بين السموات العلى فملاهن أطواراً من ملائكتك ، فمنهم سجود لا يركعون ، وركوع لا ينتصبون ، وصافون لا يزالون ، ومسيحون لا يسأمون ، لا يغشاهم نوم العيون ، ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان ، ولا غفلة النسيان ، ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله ، ومختلفون بقضائه وأمره ، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جناته ، ومنهم الثابتة - في الأرضين السفلى - أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأنظار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكافهم ، ناكسة دونه أبصارهم ، متلعنون بأجنحتهم ، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة

وأستار القدرة ، لا يوهمون ربهم بالتصوير ، ولا يحجرون عليه صفات المصنوعين ، ولا يجدونه بالأماكن ، ولا يشيرون إليه بالنظائر . هـ ما نقله الإمام الرازي رحمته الله .

إذا علمت ما تقدم من معنى الملائكة - لغةً واصطلاحاً - فاعلم أنه يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد أن الله (تبارك وتعالى) عصمهم (عليهم الصلاة والسلام) من صدور المعصية والمخالفة منهم - كبيرة كانت أو صغيرة - لقول الإمام الحق رحمته الله : كذا الملائكة معصومون ، وهم عباد الله طائعون ، وقول اللقاني في جوهرته وعصمة الباري - أي الخالق - لكل - أي لكل واحد من الأنبياء والملائكة دون غيرهم من الآحاد - حتمًا في الاعتقاد على كل مكلف من كل ما ينقص مقامهم من حركة أو سكون أو قول أو فعل . هـ

وقال المحقق الأمير : واعلم أن المشهور عصمة الملائكة مطلقاً وهاروت وماروت ، قيل رجلين سميا ملكين تشبيهاً أو أنهما أرسلتا فتنة ، ولم يصح فيهما عصيان وعذاب ، وقولهم (أجعل فيها من يفسد فيها) ليس غيبة لمعين ولا اعتراضاً بل مجرد استفهام ، ووقع في كلام ابن عربي على ما في اليواقيت عدم عصمة ملائكة الأرض وسما الدنيا ، وحاصل كلام السعد أنه لا قاطع في المسألة . هـ

وفي الفتاوى الحديشية لابن حجر الهيتمي رحمته الله : أجمع المسلمون أنهم - أي الملائكة - مؤمنون فضلاء ، واتفق أئمة المسلمين أن الرسل منهم إلى الأنبياء معصومون كالأنبياء ، والأصح - بل الصواب - عصمة بقيتهم ، وأما ما وقع لهاروت وماروت كما صح عنه عليه السلام في شأنهما أنهما كانا من الملائكة ، وأنهما افستا بالزهرة ، وكانت أجمل نساء زمنها حتى زنيا بها وشربا الخمر وقتلا

فمسخت كوكباً لأنهما علماها الاسم الأعظم الذي كانا يرقيان به إلى السماء ،
فرقيت إليهما ، فمسخت هذا الكوكب المضيء المعروف ، فذلك أمر خارق للعادة
أوجده الله تعالى تأديباً للملائكة في قولهم ، كما صح في الحديث أيضاً عند خلق
آدم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٣٠] . . . الآية .

فبين لهم تعالى أنه لو ركب في الإنسان لأفسدوا أيضاً فتعجبوا فأمرهم أن
يختاروا ثلاثة منهم ففعلوا فاستقال واحد فأقيل ، ونزل هاروت وماروت فوق لهما
ما وقع تأديباً لبقية الملائكة ، وزجرًا لهم عن أن يخوضوا فيما لا علم لهم به ،
وهذا الذي ذكرته من الجواب عن هذه القصة من أنها خارق للعادة ، وبهذه
الحكمة التي ذكرتها يتبين الرد على من أطال في إنكار قصتهما حتى بالغ بعضهم
وقال : إن من اعتقد ذلك فيهما كفر وليس كما زعم لما علمت من صحة
الأحاديث بها ، وإن ذلك الوقوع لتلك الحكمة لا يخل بعصمة الملائكة من حيث
هي ، ولا ينافيه شيء من الأدلة ولا من القواعد ، فاحفظ ما قررته وتأمله فإن
الكلام قد كثر في هذا الحل وتعارضت فيه الآراء والظنون ، وما ذكرته فيه هو
الأوفق بالسنة وغير منافٍ للقواعد وإن لم أر من سبقني إليه ، وقيل : لم يكونا
ملكين بل هما جنيان وإن كانا بين الملائكة ، فإن صح هذا لم يحتاج الجواب عن
قصتهما ، كما أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان بينهم وهو من الجن . هـ .
كلام ابن حجر رحمته الله .

(وقال الصاوي) (رحمه الله تعالى) في حاشيته على ذي الجلالين عند قوله تعالى
﴿ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمٰنُ وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِیْنَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا
أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتٌ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ما نصه : وقصة

هاروت وماروت على القول بثبوتها : أن الملائكة لما رأوا أعمال بني آدم الخبيثة تصعد إلى السماء قالوا : سبحانك يا ربنا خلقت خلقاً وأكرمهم وهم يعصون ، فقال الله تعالى لهم : لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم فعلهم ، فقالوا : سبحانك لا نعصيك أبداً ، فقال : اختاروا لكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم ، فركب الله فيهما الشهوة وأمرهما بالهبوط إلى الأرض والحكم بين الناس بالحق ، ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا وشرب الخمر وعلمهما الله الاسم الأعظم ، فكان إذا أمسى الوقت صعدا به على السماء ، ثم إنه جاءت إليهما امرأة تسمى الزهرة ، وكانت جميلة جداً ، فلما وقع نظرهما عليها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يحكما لها على زوجها ، ففعلا فراوداها ، فأبت إلا أن يقتلاه ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يشربا الخمر ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يسجدا للصنم ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يعلمها الاسم الذي يصعدان به إلى السماء ففعلا ، فقلته فصعدت به إلى السماء ، فمسخها الله كوباً فهي الزهرة المعروفة ، فلما علما ذلك أرادا تلاوة الاسم الأعظم فلم تظاوعهما أجنتهما ، فذهبا إلى إدريس وسألاه أن يشفع لهما عند الله ، ففعلا ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لعلمهما بانقطاعه ، فهما ببابل معلقان بشعورهما يضربان بسياط من حديد إلى يوم القيامة مزركة أعينهما مسودة جلودهما ، وما زالا يعلمان الناس السحر .

وقد اختلف في صحة هذه القصة وعدمها فاختر ابن حجر الأول لورودها من عدة طرق عن الامام أحمد بن حنبل ، واختار البيضاوي ومن تبعه الثاني لأنه لم يثبت روايتهما إلا عن اليهود ا . هـ كلام الصاوي رحمته الله .

وقال الإمام الرازي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - في تفسيره : (مسألة) الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ، ومن الحشوية من خالف في ذلك لنا وجوه :

الأول : قوله تعالى ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٦﴾ [التحریم : ٦] إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار ؛ فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ [النحل : ٥٠] فقلوه ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ يفيد العموم قلنا : لأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه ، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل على ما بيناه في أصول الفقه .

والثاني : قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٧] فهذا صريح في براءتهم عن المعاصي وكونهم متوقفين في كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحي .

والثالث : أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن .

الرابع : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه . هـ كلام الرازي - رحمه الله ورضي عنه - وفيما ذكر في هذه الخاتمة كفاية للذاكر ، وغيره لا ينفعه كلام الأوائل والأواخر .

ونختتم هذه الخاتمة بفائدة تقدم الوعد بالإشارة إليها وهي أن الصحيح

والمعتمد في المعتقد أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة - على الجميع أفضل الصلاة وأزكى السلام - فنقول ومن الله أرجو القبول :

(فائدة) اعلم - بصرك الله الحق عياناً - أنه يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد أن أفضل جميع المخلوقات العلوية والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خلال الخير ونعوت الكمال نبينا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ .

(قال) الإمام اليوسي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - في التنبية الثاني آخر حاشيته الكبرى حسبما نقله عنه الشيخ الأمير (رحمه الله تعالى) في حاشيته على شرح الشيخ عبد السلام على جوهرة والده : فينبغي لك أن تستحضر في معنى الأفضلية بين الأنبياء ما ذكره الولي الصالح أبو عبد الله محمد بن عباد في رسالته الكبرى حيث قال : إنها بحكم الله تعالى لا من أجل علة موجبة لذلك وجدت في الفاضل وفقدت في المفضول ، وللسيد أن يفضل بعض عبده على بعض وإن كان كل منهم كاملاً في نفسه من غير أن يحمله على ذلك شيء ، وذلك لما يجب له بحق سيادته والله تعالى منزّه عن الأغراض وغير هذا تصف لا يسلم من الوقوع في سوء الأدب ، وما زلت أستثقل قولهم إنّ فلاناً من الأنبياء حاله كذا وحال نبينا ﷺ كذا ، وشتان ما بين الحالين لما يوهم من النقص والاختطاط ١. هـ باختصار ، ولا يخفّاك أن النقص النسبي لا بد منه ، وأن غلبة الحال في مثل هذا المقال مغفّرة ، (نعم) أحكام الله لا تعلل مع أن المزايا من فروع الفضل فتعليله بها كالمصادرة ١. هـ كلام الشيخ الأمير رحمه الله .

وأفضليته ﷺ على جميع المخلوقات مما أجمع عليه المسلمون إلا ما ذكر

الزخشري بينه وبين جبريل مما لا يعتد به ولا ينبغي أن يذكر إلا إذا قصد بذكره رده وتزييفه وتفضيله ﷺ مستثنى من الخلاف في التفضيل بين الملك والبشر لقوله ﷺ : « أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » ولأن أمته أفضل الأمم لقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي عدولاً وخياراً ، ولا شك أن خيرية الأمم إنما هي بحسب كمالها في الدين ، وذلك تابع لكمال نبينا الذي تبعته فقضيلها تفضيل له .

وأما قوله ﷺ : « لا تخيروني على موسى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء » ... ونحوه ، فمعناه لا تخيروني تخيير مفاضلة في ذات النبوة لسوء أدب ، ولا يحتاج إلى أنه قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل لأنه مجرد احتمال ، ويحتمل أنه قاله تأديباً وتواضعاً ، فالواجب على كل مكلف اعتقاداً أنه ﷺ أفضل الجميع ، فيعصى منكره ، ويستدع ويؤدب ، نسأل الله السلامة والعافية لنا وللمسلمين أجمعين آمين .

ثم يليه ﷺ في الفضل الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ولذلك أدلة منها نداؤه ﷺ ب(يا أيها النبي) (يا أيها الرسول) ، وهم (عليهم الصلاة والسلام) ينادون بأسمائهم (يا زكريا) (يا إبراهيم) (يا موسى) (يا داود) إلى غير ذلك فمرتبتهم فيه بعد مرتبته وإن تفاوتوا فيها بالنسبة للقرب منه (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) والمراد بالقرب القرب المعنوي ، كما قاله الحق الأمير قال ويشير للتفاوت قول البوصيري يعني في البردة :

واقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فالثاني أعظم . هـ فبقية أولى العزم من الرسل أفضل من بقية الرسل ، وأولو

العزم خمسة : سيدنا محمد ﷺ ، وسيدنا إبراهيم ﷺ ، وسيدنا نوح ﷺ ،
وسيدنا عيسى ﷺ ، وليس سيدنا آدم (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) منهم لقوله تعالى :
﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] وقيل : جميع الرسل أولو العزم على
الخلاف في (من) في قوله تعالى : ﴿ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]
أبائية أم تبغيضية ، والظاهر أن الخلاف لفظي من حيث أصل العزم ، وكما له
أفاده المحقق الأمير ، والله دره ظهوراً لكن ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر .

فإن قلت : إذا كان ﷺ أعظم وأفضل أولى العزم من الرسل مع أنه لم يبتل
بمثل نشر زكراً ﷺ .

قلت : وضع ذلك العارف الشعراني في المنن بما إيضاحه أن بعثته ﷺ عامة
فكان مبتلى بهم هداية جميع الخلق ، وكفى بذلك ؛ فإن الفكر المتعب للقلب
يتمنى التخلص منه ولو بالموت خصوصاً وقد جبل على الرأفة بهم والرحمة ومزيد
الشفقة يعز عليه ما فيه ضررهم مع تنوع مخالفتهم وكثرتها مع تأثره بمقتضى كمال
الأخوة بجميع ما حصل للرسل قبله فبسماع ابتلائهم يشاركون فيه ، وضاف لذلك
ما كانوا يرمونه ، وكسر رباعيته ، وشج جبته ، وخضب وجهه الكريم بالدم ،
وأخراجه من وطنه ، ومزيد الحروب ، وهذا بعض ما علم ، وإلا فحاله لكما له
أخفى كثيراً من ابتلائه ، وإليه الإشارة « بل لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً
ولبكيتم كثيراً » وكان لا يزيد على التبسم ، متواصل الأحزان ﷺ وشرف وكرم
(اللهم) شفعه فينا بجاهه عندك آمين ، (ثم) بقية الرسل غير أولى العزم أفضل من
الأنبياء غير الرسل ، والواجب اعتقاد أفضلية الأفضل على طبق ما ورد الحكم
به تفصيلاً في التفصيلي وإجمالاً في الإجمالي ، ويمتنع الهجوم على التعيين فيما لم يرد

فيه توقيف ، ويليه أي يتبع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في الفضيلة الملائكة الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام في الجملة ، فالملائكة ولو غير رسل أفضل من غير الأنبياء من البشر ، ولو كان ولياً كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وإنما قلنا في الجملة لأن الذي يلي الأنبياء من الملائكة على التفصيل إنما هو رؤسائهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، هذا ما قال به جمهور أصحابنا الأشاعرة تمسكاً بمثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] أمرهم بالسجود تعظيماً له فلو لم يكن آدم أفضل منهم لما أمروا بالسجود له لأن الحكيم لا يأمر الأفضل بخدمة المفضول وذهب القاضي وأبو عبد الله الحلبي في آخرين كالمعتزلة إلى أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، قال القاضي تاج الدين بن السبكي : ليس في تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده ، ويضر الجهل به ، ويعني بالبشر ما عدا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما هو الإجماع .

ثم قال : التاج المذكور : ولو لقي الله ساذجاً من المسألة بالكلية لم يكن عليه إثم ، فما هي مما كلف الناس بمعرفته ، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله من غير ورود دليل قاطع دخول في خطر عظيم وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه ، وقد ورد ما يمنع من الدخول في ذلك كقوله عليه السلام : « لا تفضلوني على يونس بن متى » إذ المراد به لا تدخلوا في أمر لا يعينكم وإلا فنحن قاطعون بأنه أفضل من يونس عليه السلام والذي ينشرح له الصدر ويرد ويثلج له الخاطر إطلاق القول بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خير الخلق أجمعين من ملكٍ وبشر ، وخير الناس بعد الأنبياء والملائكة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ١ . هـ كلام التاج .

قال المحقق الأمير (رحمه الله تعالى) قوله ﷺ : « لا تفضلوني على يونس ابن متى » فيه إشارة لنفي الجهة فإن يونس نزل به الحوت إلى قاع البحر ، ومحمد ﷺ ارتقى ، وكذلك أقرب ما يكن العبد من ربه وهو ساجد ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١٩] إشارة لنفي جهة العلوا . ه كلام الشيخ الأمير .

ويحكى أن ابن سيد الناس لما ضاقت عليه معيشته بالشام توجه إلى العراق وقد بعث إليه الخليفة العباس فلما قدم بغداد رغب فيه أهلها وأقبلوا عليه بالتعظيم والإجلال والهدايا ، فبعث إليه الخليفة يوماً وقد جلس مع خواصه في دسكرته ، فلما اطمأن به المجلس قال له : إن حديثاً قد ورد عن النبي ﷺ وقد تحيرت في كشف معناه ولم أجد من يبين لي ذلك فقال له : وما هو ؟ قال : هو قوله (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : « لا تفضلوني على يونس بن متى » وقد انعقد الإجماع وصرح الكتاب والسنة بأنه أفضل العالمين على الإطلاق ، فما وجه النهي عن تفضيله على يونس بن متى ؟ فقال له : أيها الخليفة ، إن النبي لم يكن على الفضل ولا عن التفضيل وإنما هو لنفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، فقال له الخليفة : كيف يكون ذلك ؟ ونفي الجهة والمكان أجني من هذا الحديث ، فقال له : لا أجيبك عنه حتى يجتمع علماء البلد فتسألهم عن معنى الحديث فإن أجابوك بمثل ما أجيبتك به فقد أصابوا وإلا فقد أخطؤوا ، وقد أجلتهم ثلاثاً ينظرون ويتأملون في معنى الحديث ، فأحضر الخليفة علماء البلد - أي بغداد - فقال لهم : إني سألت ابن سيد الناس عن معنى قوله ﷺ : « لا تفضلوني على يونس ابن متى » فزعم أن معنى الحديث نفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، وقد أجلكم ثلاثاً حتى تمنعوا النظر فيما قال ، فإن وافقتموه على ذلك فبينوا وجهه ، وإن عجزتم عن

البيان بعثت إليه بحضرتكم حتى يفصح عن وجه ذلك فيبينه أو يعجز ، فأقبلوا إليه في اليوم الثالث ، فقالوا : إن الحديث أجني من نفي الجهة والمكان عن الله تعالى : فقال لهم : أذلك قلت بأجمعكم ؟ قالوا : نعم فأمر بإحضار ابن سيد الناس ، فلما اطمأن به المجلس ، قال له : إن هؤلاء قد اتفقوا على أن الحديث أجني من نفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، فقال لهم : أذلك قلت بأجمعكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : أستم تعلمون أن النبي ﷺ أفضل العالمين على الإطلاق ؟ قالوا : بلى ، قال : أو لستم تعلمون أن الله قال لنبيه ﷺ ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] ولا يقال للرجل لا تكن كفلان إلا أن يكون أفضل منه ، قالوا : بلى فقال لهم : إنه لم يبق للحديث وجه يكشف عنه اللبس ويوضحه إلا وجه واحد ، وذلك أن الله سبحانه لما أسرى بنبيه حتى ظهر بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام وأهبط يونس عليه السلام في بطن الحوت إلى تخوم الأرض لم يكن النبي ﷺ بالنسبة إلى ذلك المكان بأقرب إلى الله سبحانه من يونس بن متى قرب مكان ولم يكن يونس مع هبوطه إلى تخوم الأرض بأبعد من الله بالنسبة إلى مكانه الذي هو به من السفول ؛ لأن الله سبحانه لا يقرب منه مكان ولا يبعد منه مكان آخر لأن الأمكنة جميعها بالنسبة إليه سواء لأنه تعالى في كل مكان بعلمه فبقي الفضل والتفضيل على ما كانا عليه ، واتفت الجهة عن الله تعالى والمكان والقرب والبعد بسببهما فلما بينها قالوا بأجمعهم : كشفت عنها القناع ، وصيرتها أبين من شمس الضحى فله درك من عالم ؛ قد أمدك الله بالإمدادات الربانية والفتوحات الغيبية وجعلوا يقبلون رأسه ويديه ورجليه ، ثم خلع عليه الخليفة وجميع وزرائه وأرباب دولته وأمر له بمائة ألف دينار وبجيلة الخاصة به أن يركب عليها إلى منزله فتكون

بعد ذلك له (رحمه الله تعالى ورضي الله عنه) .

وإلى محصل ما تقدم الإشارة بقول اللقاني في الجوهرة :

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق
والأنبياء يلونه في الفضل وبعدهم ملائكة ذي الفضل
وقول الشيخ أحمد المقرئ في الإضاءة :

والأنبياء أفضل فالملائكة يتلون في فضل علوا أرائكه
وقيل بالعكس وبعض فصلا في ذاك تفصيلا له قد أصلا
وانعقد الإجماع أن المصطفى أفضل خلق الله والخلف اتقى
وما نحى الكشف في التكوير خلاف إجماع ذوى التنوير
فاحذر لغير منعه سماعه واتبع السنة والجماعة
وفضل المخصوص بالإسراء على البرايا دون ما استثناء

قال الشيخ سيدي محمد عlish في شرحه لهذا الرجز عقب هذا البيت
الأخير ما نصه : وحكى الإمام الرازي وغيره بالإجماع على ذلك واستثنوه من
الخلاف في تفضيل الرسل على الملائكة والعكس ، وفي التنزيل ﴿ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ
دَرَجَتَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] اتفقوا على أن المراد به محمد ﷺ .

وفي حديث الترمذي : « وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » واستدل
أيضاً لتفضيله ﷺ على جميع المخلوقات بآية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾
[آل عمران : ١١٠] وشرف الأمة بشرف متبوعها ، وأما من يليه ﷺ منهم في
الفضل فقال الحافظ السيوطي في نظمه المسمى بالكوكب الساطع :

يليه إبراهيم ثم موسى ونوح والروح الكريم عيسى
وهم أولو العزم فمرسلوا الأنام فالأنبياء فالملأئكة الكرام

أفاده ابن كيران ١. هـ كلام الشارح المذكور ، وبانتهايه انتهى ما تيسر جمعه في
هذه الرسالة في الوقت ، والله المستعان سبحانه .

(اللهم) اجعلها خالصة لوجهك الكريم

آمين بجاه سيدنا ونبينا ومولانا محمد ذي القدر العظيم

عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وعلى آله وأصحابه ذوي القدر الرفيع
عند الله في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع

الصفحة

٣ مقدمة
٥ يجب على كل مكلف أن يعتقد عصمة الأنبياء
٦ معنى العصمة لغةً واصطلاحاً
١٠ بيان معنى عصمة الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله
١٦ دليل وجوب الأمانة لهم (عليهم الصلاة والسلام)
١٩ تنزيه الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)
٢١ الفوائد والخصائص التي منحها آدم <small>عليه السلام</small>
٢٤ بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك
٢٩ الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) كلهم معصومون لا يصدر عنهم ذنب
٣٣ ما الفرق بين العصمة والحفظ ؟
٣٥ ما الحكمة في قوله تعالى في آدم <small>عليه السلام</small> عصى وفي إبليس أبى ؟
٣٦ ما الحكمة في وقوع آدم <small>عليه السلام</small> في أكله من الشجرة
٣٨ ما الوجه الجامع بين سواد الحجر وجلد آدم وبنيه ؟

- ٣٩ هل تكون عقوبة العارفين على الذنب أشد أم عقوبة الجاهلين ؟
- هل يلزم من كون الحق تعالى ينسي عبده سيئاته أن تكون بدلت
- ٤٠ حسنات
- ٤٢ صورة تبديل السيئات بالحسنات
- هل يمكن أن يكون إبليس قصد بقوله لآدم عليه السلام هل أدلك على
- ٤٥ شجرة الخلد وملك لا يبلى الخير الذي آل أمر آدم عليه السلام إليه
- لَمْ لَمْ يفتح آدم عليه السلام قبضة السعادة بالطاعة الصرف دون
- ٤٧ وقوعه في المعصية ثم توبته منها ؟
- ٤٧ الجواب عن نوح عليه السلام
- ٤٨ الجواب عن السيد أيوب عليه السلام
- ٤٩ الجواب عن يونس عليه السلام
- ٥٠ الجواب عن السيد موسى عليه السلام
- ٥١ الجواب عن السيد سليمان عليه السلام
- ٥٣ الجواب عن خطيئة داود عليه السلام
- ٥٤ الجواب عن السيد يوسف عليه السلام
- ٥٥ الجواب عن أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام
- ٥٧ الجواب عن نبينا محمد عليه السلام

٦٧	خاتمة
	نبذة يسيرة تتعلق بجانب الملائكة الكرام لكونهم شاركوا الأنبياء
٦٨	والرسل في العصمة
٦٨	معنى الملائكة لغةً واصطلاحاً
٧٩	عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب
	الرسول محمد ﷺ أعظم وأفضل أولى العزم من الرسل مع أنه لم
٨٢	يبتل بمثل نشر زكريا عليه السلام
٨٩	فهرس المحتويات

